المعارك الفاصلة

في التاريخ

عنيت بنشره
ادارة الهلال بمصر
سنة ١٩٢٧

المعارك الفاصلة

في التاريخ

عنيت بنشره

ادارة الهلال بمصر

سنة ١٩٢٧

تمهيد

الموجودات صفتان ، الترابط والتغيّر

الترابط : واعني بهِ ان أجزاء الكون مترابطة بعضها ببعض . فكل ذرَّةٍ ، في كل جرمٍ ، في كل نظام ، في كل ناحية في ساحة الفضاء ، هي مترابطة بكل ذرَّةٍ غيرها . وينشأ عن الترابط ، بين أجزاء الكائنات ، تأثير ، كثير أو قليل ، حسب قرب المترابطين أو بعدها . فيحدث عن الانفجار زلازل وهزات حوله . وبهذه النسبة والقياس تؤثر المعارك الحربية في محيطها الجغرافي والتاريخي . ويشتد ذلك التأثير ، أو يخف ، حسب قرب المحيط المتأثر ، أو بُعده ، عن موقع المعركة

التغيّر : واعني به ان كل شيء ، في كل مكان ، في كل حال ، سائر في سبيل التطوُّر والتكيف ، خضوعاً لاثبت نواميس الكون . فهو الآن غير ما كان ، وغير ما سيكون

هذا نهر النيل ، وكل نهر على سطح الغبراء ، تراه فتزعم انه هو الذي رآه الفراعنة ، فتقول انه مرّ عليه عشرات الالوف من السنين ، ولا أدري هل تضمن بقاء قطرة ، من مائه ، في مكانها ثانية واحدة . أوَلا يدلك الحس ان كل قطرة متحركة ومحمولة بالمجرى العام ؟ كما اننا وكل امة محمولون في مجرى التطور العام . فما تراه من

مياه النهر هو غير ما رآه رعمسيس وتحفنيس وثوطميس . بل غير ما وقع نظرك عليه منذ برهة

هذا هو شأن الكون ، لا شيء ثابت . فنرى الماء في مجرى النهر ، يتدافع ويجري ، ولا نعلم كيف ولماذا . انما اصطلحنا على كلمة تصف المجرى التاريخي . ونرى أوراق الاشجار تسقط ، ثم يحل غيرها محلها . ونرى الوالدين يشيخان فيموتان ويخلفها أولادهما ، « فكل ما عليها فان »

ولكن هـذا التبدل والتغير لم يتم بدون « معارك فاصلة » بين قطرات المـاء في مجرى النهر ، وبحكم المعارك هي مسيرة لا مخيرة ، فلا يمكنها الوقوف . كذلك المعارك حامية بين أسنان اللبن والاسنان الثابتة ، فتدفع هـذه تلك ، وتحل محلها . وهكذا براعم الشجرة ، وأوراق الخريف . وهل الدول والامم والمدنيات الا مظهر طبيعي لهذا الناموس ؟ هل سقوط دولة ، وقيام غيرها موضعها ، الا كسقوط ورقة وبروز غيرها في محلها ؟ . وكل ما ذكر لا يتم بدون عراك شديد الهول . « ففواصل المعـارك » شرط لازم لنفوذ ناموس الكائنات الفعال ، الذي هو التطور

ويلامس العقل هاتين الصفتين في درجات أربع

الاولى المعرفة : وهي ادراك الحادثة ، أو الحقيقة ، جزئياً

الثانية العلم : وهو ادراكها كلياً ، اعني باعتبار علاقاتها وتنائجها

الثالثة الفلسفة : أو العلم الاعلى . وهي عبارة عن ادراك دوائر عديدة مع تبيان روابطها وتغيراتها

يشترك في الاولى الانسان والحيوان . وينفرد الانسان بالثانية ،

دون الحيوان ، اذ ليس عنده كليات . ويختص بالفلسفة افراد ، من الناس ، امتازوا بسعة الاطلاع ، وواسع النظر . وغرض النفس في هذه الدرجات الثلاث بلوغ الدرجة الرابعة،وهي «ادراك الحقيقة» وراء تلك الظاهرات

فقد قسمت أشياء هذا الكون الى قسمين، هما ظاهرة وحقيقة . فالظاهرة هي العرَض ، والحقيقة هي الغرض . والحكماء هم الذين لا يلهون بالاعراض عن الاغراض . بل يتخذون ظاهرات هذا الكون درجات سلم يرقون بها الى ادراك ما وراءها من الحقيقة . وتشتاق النفس ، شوقاً عميقاً الى الحقيقة المستقرة وراء ظاهرات هذا الوجود . ولا تكتفي بالمعرفة مجردة عن علاقاتها ، الا نفس الحيوان ، ومن اصطف ، من الناس ، في صف الحيوان

فلكل حادثة ، وكل معركة ، علاقات سابقة ولاحقة . لانها حلقة في سلسلة التاريخ العام . ولا يتم العلم الا بدرس السابقات واللاحقات ، بكشفه الحقيقة الكلية . والكتاب المفيد هو الذي يسد أشواق النفس من هذا القبيل . فسرد المعارك . مع قطع النظر عن عواملها ومعمولاتها ،هو كتصرف العجائز في سرد القصص على الاطفال حولهن ، او المشعوذ الذي يدهش الناس بظاهرات لعبه ، ويترك في نفوسهم فراغاً لمعرفة السر في تلك الظاهرات . والكتاب الذي يقف عند هذا الحد هو بلاء على قرائه

فهل أتمكن من ارواء عطش قرائي، بكشفي لهم الحقيقة الجميلة ، وراء ظاهرات هذه المعارك ، التي اوردت منها عشرين « فاصلة »

ثبت في خلال ٢٥٠٠ سنة ، من معركة مراثون قبل المسيح ٤٩٠ سنة الى معارك خط هندنبرغ سنة ١٩١٨ ؟

الاصول التي استندت اليها في تأليف هذا الكتاب :

١ً ـ كتاب كريسي « ١٥ معركة فاصلة »
٢ً ـ كتاب فيلارد اتاريدج « المعارك الحديثة »
٣ً ـ الانسكلوبيذيا البريطانية
٤ً ـ تاريخ اللورد نلسن
٥ً ـ تاريخ غربي اوربا
٦ً ـ التاريخ العام لماير
٧ً ـ تاريخ الاجيال الحديثة لمؤلفه ك . ا. فيف
وقلَّ في هذا الكتاب ما هو من عندياتي

مصر ابريل ١٩٢٧ هنا خباز

الاولى

معركة مراثون

سنة ٤٩٠ ق . م

تعال معي أيها القارىء العزيز ، الى قمة ، فوق منحدرات الجبال ، تجاه سهل مراثون . ولكن هناك قبل وقتنا الحاضر بعدة ٢٤١٧ سنة . فنرى على السفح تحتنا مؤتمراً حربياً ، مؤلفاً من عشرة جنرالات ورئيسهم ، يبحثون في أمر الحرب بين الفرس واليونان

من هم اليونان ؟

اليونان أو الهيلانيون ، هم أول من ظهر في ساحة المدنية من الشعوب الاوربية . وقد أخذوا التمدن عن الشرق بواسطة الفينيقيين . فهم همزة وصل بين الشرق وأوربا ، أو الجسر الذي عليه عبرت مواكب التمدن من ضفاف النيل والعاصي والدجلة والكنج ، الى ضفاف السين والرين وتيبر والتايمس

وقسمت بلاداليونان قديماً الى عدة أقسام ، هي تساليا وايبروس وثراقيا وبلبونيسس وجزر بحر ايجه ومدن خرسونيز ، على شطوط غربي الاناضول . وكانت أثينا وسبرطا أهم مدنهم

اشتهرت أثينا بالعلوم والفنون والسياسة . وسبرطا بالعسكرية بنوع خاص

وكان يحكم أثينا قهارمة ، يدعونهم « اراكنة » او اراخنة ، جمع اركون او ارخون ، آخرهم أسرة بيسستراتيس . فثار الاثينيون عليها وخلعوا الاراكنة ، ورفعوا علم الحرية والمساواة . وقسموا المدينة الى عشرة أقسام ، حسب العشائر التي تسكنها . ولكل عشيرة جنرال يمثلها في الحرب . وعلى العشرة حاكم عسكري ، هو رئيس المؤتمر . وهؤلاء هم الذين نراهم تحتنا على سفح جبل مراثون ، للنظر في حرب الفرس

من هم الفرس ؟

الفرس كاليونان من أصل ارياني ، سكنوا البلاد المعروفة ، شرقي دجلة وجنوبي قزبين . وكانوا أرباب فن وفلسفة . وقد زحزحوا دول الكلدانيين والاشوريين ، خلفاء حموراني وسرجون ، وحلوا محلهم . واكتسحوا البلدان ، وأخضعوا الامم ، من الهند الى تونس ، ومن بحر العرب الى روسيا . فكان تحت لوائهم مائة وثمان وعشرون أمة . كالسكيثيين والفرثيين والارمن والاتراك والاراميين والفينيقيين وغيرهم . ونشروا أعلامهم في سماء أناضوليا ، وخضعت لهم اماراتها واياالاتها . أما مدائن خرسونيز فكانت كالزئبق الرجراج لا تستقر على الاستعباد ، ولا تخضع للاستبداد . وكان اخوانهم ، سكان بلاد اليونان ، يثيرون في نفوسهم لظى الثورة والعصيان . وقد اغتاظوا من ستراب سنة ٥١٠ ق . م . وهو أخو الملك داريوس كان حاكماً على خرسونيز . فجهزوا عشرين سفينة حربية ، وجاءوا بها الى شطوط الاناضول . وهاجموا مدينة ساردس ، وأحرقوها . وعملهم هذا من أغرب أنواع الجرأة في الدنيا . فلما بلغ الحادث مسامع

الملك داريوس لم يعبأ به كثيراً ، قائلاً « ان ستراب وابنه داتيس سيخمدان هذه الثورة » . ولكن لما سمع ان اليونان جاءوا بسفنهم من وراء البحار ، وهم الذين أثاروا هذا القيام ، سأل : من هم اليونان ، وما هم ؟ : فاخبروه انهم أمة صغيرة ، تسكن غربي بحر ايجه . فهاج داريوس ، وأخذ قوساً ، ورمى بها سهماً الى السماء وقال :

« أعني يا اهورمزدا العظيم على سحق اليونان »

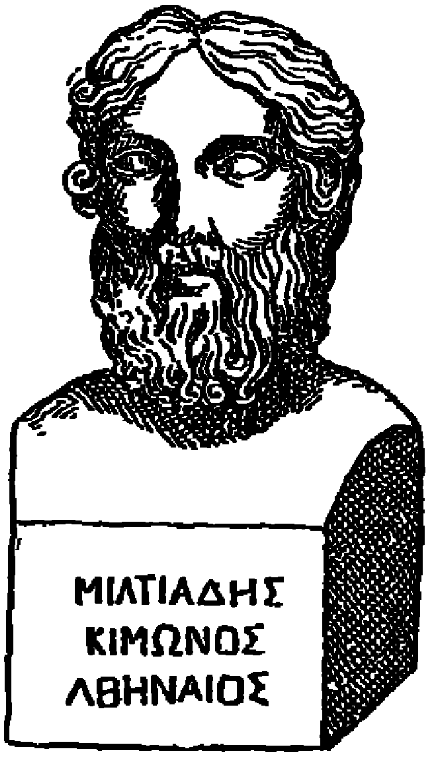
وعين خادماً خاصاً ، يذكر له اليونان ، والانتقام منهم ، كل صباح . فلما أخمدت ثورة خرسونيز ، حشد في كيليكيا جيشاً لجباً ، وأمر الفينيقيين أن يجهزوا له ٦٠٠ سفينة ، ركبتها جيوشه بقيادة داتيس ابن أخيه ، وارتيفارنس المادي . فاجتاحت هذه الحملة جزر بحر ايجه ، ولا سيما أبوبيا ، جارة الشطوط اليونانية . وقد وصلت الحملة شطوط اليونان ، وحلت سهل مراثون تحتنا . وهاهم قواد أثينا يبحثون في أمر مهاجمتهم

ملتيادس

كان في المؤتمر رجال استلفتوا نظرنا ، لانهم من أقطاب اليونان . منهم كلياخس الحاكم الحربي ، وأرستيدس العادل ، وثمستوكلس الحكيم . أما الرجل الفذ الذي استلفت أنظارنا بنوع خاص فهو ملتيادس « بطل مراثون » ونصير تمدن اوربا وأميركا ٢٥ قرناً . وكان أراكنة أسرة بيسستراتيس قد سببوا قتل والده ، ولكنهم لم يمدوا اليه يداً ، بل رحموا شبابه . ولما مات أخوه ، حاكم خرسونيز ، ولوه مكانه ، وذلك قبل معركة مراثون بـ ٢٨ سنة

وفي مدة حكم ملتيادس في خرسونيز حمل داريوس على السكيثيين

وأمر حكام الاناضول أن يمدوه بفرق من الجنود تصحبه في تلك الحملة . وكان ملتيادس في عداد الذين أطاعوا الامر . ورافق فرقه الى نهر الدانوب . وأقامه الملك داريوس على خفارة الجسر الذي مده على النهر ، وسار الملك بجيشه عليه ، الى بلاد روسيا . ولما بلغ اليونان ، على الجسر ، حبوط مسعى داريوس في روسيا ، أشار عليهم ملتيادس أن يهدموا الجسر ، ويدعوا الملك وجيشه يهلكون في داخل بلاد الروس . فلم يتجاسروا على انفاذ المشورة . ولما عاد داريوس عرف بما كان من ملتيادس، فحفظها له . ولما جاء



ملتيادس

ارتيفارنس بالحملة ، من نواحي كيليكيا ، وعلم ملتيادس ان المقاومة لا تجدي ، جمع كنوزه ، بغاية السرعة ، في خمس سفن ، وسار بها قاصداً أثينا فرآها الفينيقيون عن بعد ، وطاردوها ، وأدركوا احداها ، وفيها ميتيوخوس أخو ملتيادس الاكبر ، فاسروه . أما ملتيادس فنجا ، وجاء أثينا ، فعينوه جنرالا . وها هو في المؤتمر تحتنا

المؤتمر . قراره

كان في ذلك المؤتمر رأيان . الاول وجوب الهجوم على الفرس حالا . والثاني التريث حتى ترد اليهم النجدة من سبرطا . فقد قرروا

ارسالها ، ولكن من تقاليدهم ألا تبرح جنودهم العاصمة قبل اكتمال البدر ، وهم الآن ينتظرون حلول الوقت . ولذلك رأى بعض الجنرالات ضرورة انتظارهم

ولكن هنالك خطراً ، من اتساع نطاق الخيانة ، اذا تأخرت المعركة . فتتمزق أوصال اليونان ، فتسقط أثينا . فلدرء هذا الخطر ، يجب اصلاء الفرس المعركة حالا . وهذا هو رأي ملتيادس

وكان الرئيس كلياخس يسمع آراء الجنرالات صامتاً . ولدى الاقتراع تساوت الاصوات، خمسة لخمسة . فتوقفت النتيجة على رأي كلياخس الرئيس . فنهض ملتيادس وخاطبه بما يأتي :

« يا كلياخس ، مواطني العزيز . هذا اليوم هو يومك . فانك تحمل على منكبيك مصير اثينا . فاما أن تكبل بأغلال الاستعباد والهوان، او انها تزدان بتيجان الحرية والمجد ، فيكون مجدك خالداً ، مجداً لم يبلغه هرموديوس ، ولا حلم به ارستوجين

« يا كلياخس الحر . لم تدخل اثينا في مأزق كهذا منذ نشأتها . فاذا أذعنا للفرس ولوا علينا هيبياس الخائن ابن بيسستراتيس . وانت ادرى اذ ذاك بمصير الامور . واذا فازت اثينا اليوم اصبحت ربة البند والعلم في كل بلاد الهيلينيين . فاذا لم نصل المعركة «الآن» ظهرت بوادر الخيانة ، ومزقت اوصالنا ، فهوينا وبتنا في قبضة الاعداء . اما اذا خضنا المعركة فاني واثق ان الآلهة لا تهملنا »

وكان لنبرات صوت ملتيادس تأثير عظيم في نفوسنا . وسمعنا دوياً في الفضاء فوق رءوسنا ، فسره الارواحيون انه صوت ارواح ابطالهم وجبابرتهم ، تزكي رأي ملتيادس ، الذي سطعت على محياه

أنوار الالهة . فهابه كلياخس الرئيس ، واطرق يفكر هنيهة ، ثم أنَّ أنَّة عميقة ، ورفع رأسه وقال : — « حرب أيها الابطال »

فتقررت الحرب حالا . وعينوا ملتيادس قائداً عاماً ، وخضع له العشرة الزعماء

سهل مراثون

يقع هذا السهل ، الذي نراه الآن بعيوننا ، بين الجبال ، التي نحن عليها ، والبحر . وهو هلالي الشكل ، في جنباته مستنقعات ومغاوص ، تحول دون حركات الخيول ، والجبال حوله صخرية وعرة ، تغطيها الاشجار الظليلة المثمرة ، ويفوح ارج بعضها فيعطر الانفاس . وهذا السهل مكرّس لهرقل بطل اليونان الشهير . وعلى مقربة منه نبع مكاريا التي آثرت الحرية على الحياة . فكان في جوه وجنباته كهربائية الوطنية والقومية والشهامة

الجيشان

أمامنا جيشان : الجيش الفارسي ، والجيش اليوناني . وأين هذا من ذاك ؟ . فلا يزيد اليوناني على عشرة آلاف ، انضم اليهم الف جندي من بلاتيا قبيل بدء المعركة ، فصاروا أحد عشر الفاً . أما الجيش الفارسي فتغطي مضاربه وخيوله ورجاله ، سهل مراثون . فظهروا لنا كنجوم السماء ، وكالرمل الذي على شاطىء البحر ، فلا يُعد من الكثرة . ونرى أسلحتهم وخوذهم ودروعهم وصفاحهم ، تلمع تحت أشعة الشمس . وفي هذا الجيش : فرقة الحرس الملكي ، أرباب المجد الخالد والانتصارات العديدة تحت كل سماء : فيلق المادين الجبابرة ، الذين دكوا بزعامة كيكزارس ، أمجاد بابل

العظيمة : الجيليون من هركانيا وأفغانستان : فوارس خراسان ، العوابس، واذربيجان : رماة الحبشة السود البارعون : سيافة الدجلة والعاصي والنيل. أبطال كل أمة تحت السماء أتوا لمحاربة هذه الشرذمة اليونانية . فكان جيش أثينا أمام الجيش الفارسي كالدجاجة أمام الفيل

معنويات الجيشين

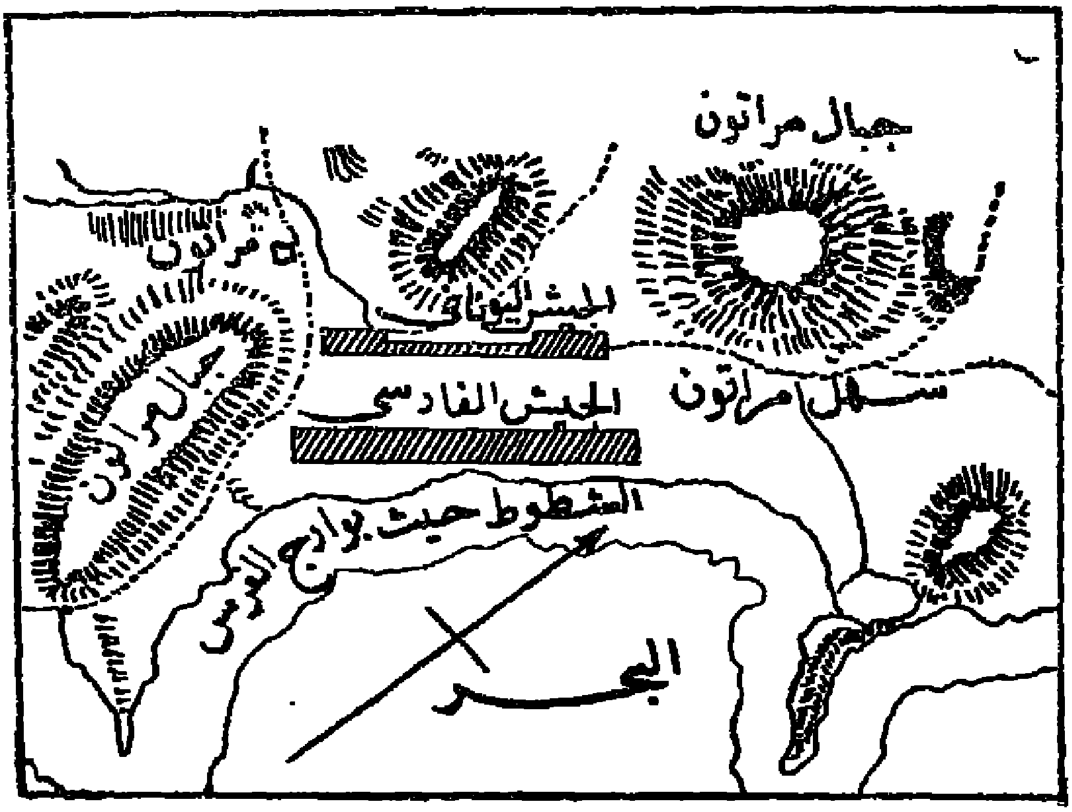
ولكن لم يخف على ملتيادس الفرق العظيم بين معنويات الجيشين . فقد عرف مواطن الضعف في الجيش الفارسي ، لما رافقه الى الدانوب . اذ ليس فيه الاخاء والوحدة كما في الجيش اليوناني ، لاختلاف أجناسهم وجنسياتهم ، وتنوع مذاهبهم وأوطانهم . ولم يربطهم معاً الا قيود الاستعباد وكانوا يعولون في القتال على السيوف الخفاف والرماح القصار ، بخلاف اليونانيين أرباب الرماح الطوال والسيوف الصقال ، والدروع المنضدة . وكانوا يمتازون على الفرس بتدريبهم العسكري ، والجمناستيكي . فكانوا يتقدمون ويتأخرون ، وصفوفهم قويمة، لا تتعوج ولا تلتوي . ثم ان وجود هيبياس الخائن في الجيش الفارسي يذكي نيران الحقد والنقمة في قلوب الاثينيين ضدهم . أمام هذه الحقائق وقف ملتيادس موقف القائد الحكيم الواثق من نفسه ومن قومه

تنظيم الهجوم

في أحد أيام سبتمبر بعد الظهر سنة ٤٩٠ ق.م . رتب ملتيادس الصفوف ، ووزع الاسلحة ، ووضع كليماخس في الجناح الايسر ، حسب التقاليد ، لانه الحاكم الحربي . ووضع الى جانبه الانصار البلاتيين . ووضع أريستيدس وثمستوكليس في القلب . وأخذ هو

الجناح الايمن . وكانت عيناه على كل أقسام الجيش .

وجعل صفه طويلا رقيقاً ، ليصل بين المستنقعات والمغاوص ، فلا يترك ثمة مجالا لحركات الخيول الفارسية لاجراء حركة الالتفاف بجناحيه . وقسم الصف الى مربعات ، كثافة المربع ثمانية رماح .



ميدان مراثون

وأخفى تنظيمه عن أعين الاعداء . ولما أكمل تنظيماته نشر في الجنود النشيد الآتي وهو من نظم اسخيلوس :

يا بني اليونان هيّا لحمى أوطانكم
وادفعوا جيش الاعادي واعضدوا اخوانكم
وعن الاعراض ذودوا جرّدوا شجعانكم

وأمرهم بالجري ركضاً كخيل الرهان ، عوض السير البطيء المعتاد في الزحف ، كي يصلوا الفرس قبلما يتمكن اولئك من القيام بحركات

الفرسان أو رماة السهام . وكان الاثينيون قد الفوا مثل هذه الحركات الجناستيكية . فانحدروا صفاً واحداً ، واعيننا تراقبهم ، ولم يلتو صفهم ، بل كان خطاً هندسياً مستقيماً

ورأينا حكمة ملتيادس في ترتيبهم ، اذ وضع الاخ الى جانب أخيه ، والنسيب مع نسيبه ، والجار مع جاره ، وأبناء العشيرة الواحدة بعضهم مع بعض . فكانوا اخواناً متساندين ، فاذا استغاث أحدهم لبته القلوب قبل الحناجر . فاندفعوا على جموع الفرس اندفاع الاسود الضراغم على طرائدها . ولم أر مشهداً شائقاً كهجوم الاثينيين في سهل مراثون

التحام العراك

ولم يكن كلا ولا حتى التحم العراك ، وانعقد فوق رءوسهم قسطل الحرب . ولكننا تمكنا من رؤيتهم لان أشعة الشمس كانت واقعة عليهم من ناحيتنا . فالتحمت الصفوف ، ووردت الالوف موارد الحتوف ، ولم نسمع الا قعقعة السلاح ، وزئير الابطال ، وأنين الجرحى والمحتضرين . وظهرت ارجحية السلاح اليوناني ، والتدريب الاثيني . فكانت حرابهم الطويلة تصيب الاعداء ، وحراب اولئك قصيرة ، وعبثاً يحاولون الاحاطة بأحد أبطال اليونانيين فيعملون فيه خناجرهم ، اذ كان الاخوان يذودون عن أخيهم في ساحة الوغى ، فيردون عنه الخصم مدحوراً . فسقط رجال الصف الاول الفارسي ، على مرأى من قوادهم . فتقدم الصف الثاني ، فاصابه ما أصاب الاول

ورأينا من حملات داتيس وربواته ما أوجب تراجع قلب الصف

اليوناني . فأدرك ذلك ملتيادس حالاً ، وأسرع فأطبق على الفرس من الجانبين ، فشغلهم ريثما تمكن اريستيدس وتمستوكليس من اعادة تنظيم مربعاتهم ، فأعادوا الكرة على الفرس . ووقعت الصفوف تحت أقدام الصفوف . وثغرت جبهة الفرس ، وعجزوا أمام حنكة ملتيادس الحربية

وبعد ما أبدى الفرس استبسالاً مدهشاً ، ولوا الادبار . فصاح اليونانيون ، وجدّوا في اثرهم . وطاردوهم مطاردة النسور صغار البغاث ، وضغطوا عليهم عند الشاطىء ، وأدركوا سفنهم ، وصاحوا « النار النار » يرومون أن يحرقوها ، ويقطعوا عليهم خط الرجوع . وغنموا سبعاً من تلك السفن . ولكن الفرس ركبوا بقيتها وأقلعوا في عرض البحر ، تاركين من جثث جنودهم في الميدان ٦٤٠٠ تجاه ١٩٢ فقط من اليونانيين ، وقد سقط أكثر هؤلاء عند الشاطىء . وممن قتل هنالك كليماخس انرئيس ، والشاعر اسخيلوس ، وبعض كبراء اثينا

ولم تخن داتيس الحيلة ، فسار بأسطوله قاصداً اثينا ، ليوقع بأهلها على حين غرة منهم . ولكن ملتيادس شعر بقصد داتيس ، فسبقه الى اثينا ، آمراً عسكره ، الذين ما كادوا يلقون السلاح ، أن يسيروا الى اثينا للدفاع عنها . فسرى بهم كل الليل ، وفي الصباح ، لما وصل داتيس بسفنه ، رفع عيونه الى الهضاب حول اثينا ، فرأى الجنود الذين خاضوا البارحة المعركة في مراثون ، قد أحاطوا بعاصمتهم لحمايتها . فعندئذ أيقن بالفشل والانكسار . فدار باسطوله وعاد الى الاناضول

وحينئذ وصلت النجدة السبرطية ، اذ كان قد اكتمل البدر ، وقام اربعة آلاف منهم ، وقطعوا المسافة بين سبرطا وأثينا ، وهي ١٥٠ ميلا في ثلاثة أيام . ولما وصلوا وعرفوا ان المعركة قد انتهت طلبوا أن يزوروا الميدان وكانت جثث القتلى لا تزال على الارض . ولما جاءوا الى الميدان رأوا جثث الفرس مكدّسة أكداساً فهنأوا اخوانهم الاثينيين بفوزهم وعادوا الى وطنهم في لقدمونيا

الحوادث التي تلت معركة صرانوره

سنة ٤٩٠ ـ ٤٨٧ : كان الفرس يعدون حملة جديدة للانتقام من أثينا

سنة ٤٨٧ : ثارت مصر على الفرس ، فاعاقت الحملة

سنة ٤٨٥ : مات داريوس وخلفه ابنه كمبيز

سنة ٤٨٤ : استرد الفرس مصر

سنة ٤٨٠ : غزا زركسيز اليونان ، وحدثت معركة ثرموبلي ، حيث قتل ليونيداس والثلثمائة السبرطيون . وفاز اسطول اليونان على أساطيل الفرس في سلاميس

سنة ٤٧٨ : انكسر مردونيوس القائد الفارسي امام اليونان في بلاتيا

سنة ٤٧٧ : انضوى اليونان تحت علم أثينا . فعلا قدرها

سنة ٤٦٦ : فاز اليونان على الفرس في اوريميدون

سنة ٤٦٤ : ثارت مصر ثانية على الفرس

سنة ٤٥٧ : شبت حرب بلبونيسس بين أثينا واخواتها وفي هذه

السنة سارت ٢٠٠ بارجة من اثينا ، فيها ٤٠ ٠٠٠ رجل ، الى مصر وصعدت في النيل ، وحصرت مدينة ممفيس ، عاصمة مصر ، وكانت بوارج اخرى تحصر قبرص ، وشطوط فينيقية

هنا بلغت أثينا اوج مجدها . ونبغ فيها عظام الفلاسفة ، سقراط وارسطو وافلاطون

سنة ٤٢٥ : استؤنفت الحرب بين مدن اليونان ففازت أثينا على سبرطا

سنة ٤١٥ : سارت حملة أثينا ، البحرية ، على سيرا كوسا في سيسيليا

وهي موضوع المقالة الثانية

الثانية

معركة سيراكوسا

سنة ٤١٥ ق . م .

«لم يتصور الرومانيون ما كان يتهدد ذريتهم ، والغرب اجمالا ، بأسطول أثينا في مرفأ سيرا كوسا . فلو فاز الاثينيون هنالك لكان اليونان لا الرومان الفائزين بقرطاجنة . ولكانت الزعامة لهم في الاجيال التالية وليس للاتين . وكانت اليونانية ، لا اللاتينية لغة ايطاليا وفرنسا واسبانيا . وكانت شرائع أثينا ، لا شرائع رومية ، أساس التشريع الاوربي » .

(ارنولد في تاريخ رومية)

« حملة أثينا البحرية على سيرا كوسا من أهم فواصل المعارك »

(نيابور)

تركنا أثينا في موقف الدفاع عن حرمة أوربا ، والتمدن ، أمام هجمات الفرس، ورأينا رجالها يزدادون حولا وطولا ، حتى هاجموا مصر ، وحصروا عاصمتها . ولكننا في سيرا كوسا نراهم ، وقد انعكست الآية ، فصاروا هم الهاجمين المدحورين ، كما دحروا هم الفرس قبلاً ، وكما دحر هؤلاء الكلدانيين والاشوريين من قبل

مقارنات الاحوال في القرن الخامس ق . م .

هذا القرن هو قرن القرون في تاريخ الانسانية . فيه برزت أهم عوامل الاجتماع في التاريخ . فظهر بوذا وكنفوشيوس وسقراط وأفلاطون وارسطو ، ووضعت أسس الامبراطورية الرومانية

وفيما كان الحكماء والمتألهون يبثون دعوتهم شرقاً وغرباً، وذلك أساس الاديان والنظم الاجتماعية ، كانت اثينا تهجم على الليبرنث الروحي قاصدة امتلاك الانسانية والمستقبل . فكانت تحلم بالامبراطورية العالمية ، وهو حلم بابل ونينوى ورومية وباريس ولندن وبرلين وبطرسبرج . هذا كان حلم اثينا ، حتى أيقظتها من حلمها الصدمة الهائلة التي أصابتها في سيراكوسا . ولذلك حسبت معركة سيراكوسا نقطة تحول في التاريخ

ما هي سيراكوسا ؟

هي مدينة شادها الكورنثيون، على طرف لسان ممتد من جنوبي سيسيليا الشرقي الى البحر . وموقعها بين خليجين . فالشمالي هو خليج ثايس ، والجنوبي مرفأ المدينة . فكان موقعها شبه جزيرة . ولكنهم فتحوا بين البحرين قناة فصارت جزيرة حقيقية

لم تحتمل مدينة في الدنيا ما تحملته سيراكوسا في تاريخها من الهجمات . اذ هاجمتها على التوالي اثينا ، فقرطاجنة ، فرومية ، فالفندال ، فالعرب ، فبزنطية ، فنورمنديا . وكان ثباتها على الدفاع من أغرب حوادث التاريخ في كل العصور . قال ارنولد « لولا سيراكوسا ، السد الواقي الذي وضعته الطبيعة في طريق الفاتحين ، لغمرت سيول الغزاة اوربا »

كانت سيرا كوسا ، في ذلك الزمان ، كالملكة جالسة على آخر امتداد البر الاوربي في البحر المتوسط . وتكاد تسد الخليج الى جنوبيها . وكان البحر يصونها من الجهة الواحدة ، والسور المنيع من الجهة الاخرى . تليه هضبات « هيلا » ، وهوة عميقة ، فلا يقوى الطامعون على اقتحامها

وكانت عادة الحصار قديماً أن يشيد الفاتحون سوراً ، حول سور المدينة المحصورة ، ويسقفون الساحة بين السورين ، فيتخذها الفاتح مقراً لجنوده ، ويلبث ينتظر ثغر السور ، اما بخيانة ، او بضغط الجوع على المحصورين . فيدخلها الجيش الغازي ، ويعن في أهلها قتلاً ونهباً . ولم يكن فتح مدينة محصنة عنوة ممكناً ــ كمدينة سيراكوسا ــ الا بقوة مزدوجة برية وبحرية . وفي ذلك مشقة لا تخفى على القائد الخبير

تفوق أثينا

كانت اثينا القوة التي وقفت في وجه القوات الفارسية.في ذلك العصر ، حين لم تقو بابل ولا مصر ولا الشام ، على ذلك

ولكن أثينا صدت العدو مدحوراً ، كما مرّ بك في معركة مراثون . وشرعت بعدها تعزز اسطولها، عملاً برأي بيركليس . ولما جاءت الحملة الفارسية الثانية بزعامة زركسيز ، وحلت بلاد اليونان ، نفر الاثينيون الى اسطولهم ، وصاروا كلهم ، تقريباً ، بحارة . ثم كسروا الاسطول الفارسي في سلاميس ، وكسروا بعده جيش بلاتيا ، فدانت لهم المدائن والجزر ، اليونانية ، وصارت تعتمد على

حمايتهم ، وتدفع لهم الجزية . فاعتزت اثينا ، وشادت بالقوة التي احرزتها مجداً . وكانت تنفق ما تأخذ جزية على تهذيب أبنائها بالعلوم والفنون ، ولا سيما البحرية . فشاد فيدياس على الاساس الذي وضعه بيركليس

قسوتها على مستعمراتها

كل مستعمر هو مستبد ، تلك سنة العمران السرمدية
والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

هكذا كانت نينوى وبابل وصور وممفيس وقرطجنة ورومية . وهكذا قسطنطينية وڤينا ومدريد وباريس ولندن وبرلين وأمستردام على انه ولا واحدة من كل هؤلاء أبدت قسوة اثينا بصورة هائلة . فكانت تجهر بلزوم تدمير ، واستئصال شأفة ، كل من سولت له نفسه الخروج عن طاعتها ، او الوقوف في وجه إستبدادها وعنفها وكثيراً ما ردد الاثينيون القول ، وليس بدون حق :

« ان ظلم سبرطا علمنا الظلم »

فكان سكان المستعمرات عبيداً لاثينا ، يؤدون الجزية عن يد وهم صاغرون . فاسرفت اثينا في اذلالهم ، وخصت رجالها بالمناصب ، واعدتهم لذلك بالتعليم والتدريب ، ولم يكن اسطولها يعرف الهزيمة او الانكسار . فكان حلمها بالسيادة الكونية امراً طبيعياً . وكانوا يمثلونها في المسارح سيدة الف امة . اذ كانت مدائن شطوط اناضوليا الى البوسفور ، وكل جزر بحر ايجه ، مع مدائن البلقان ، تدفع لها الجزية

وكان الاثينيون يهمون بغزو سيسيليا ، وانتزاع أزمة الاحكام من أيدي رجالها . فحال دون ذلك بيركليس الحكيم . فنهاهم عن مخاطرة كهذه ، قد تكون نقطة تحول في تاريخ أثينا الحربي والسياسي ، ولما هاجم الكورنثيون أثينا سنة ٤٣١ ق . م . وأثاروا عليها كل مدن بلبونيسس ، واغتصبوا أملاكها ، وبلغوا أسوارها ، تراءى لهم ان نهضتها من كبوتها مستحيلة . على انها نهضت سريعاً ، واستعادت قوتها ، وصارت بهمة بيركليس وادارته الحكيمة سيدة البحار . واستخدمت العبيد والمأجورين في اسطولها ، وحصرت الادارة بايدي أبنائها . ولم تخش فاتحاً أو طموحاً . قال بيركليس « قد يمكن أن تسود سبرطا كل اليونان ، لكنها لن تسود أثينا » . وفي ذلك اعراب فصيح عن ثقة الاثينيين بانفسهم ، وميزتهم على السوى . ولما فقدت سبرطا حكمتها ، بموت زعيمها براسيداس ، ومل الفريقان الحرب ، تهادنا سنة ٤٢١ ق . م . فرممت اثينا سريعاً ، ما تشعث من بنيانها ، وعوضت ما خسرته من مال ورجال . وظهرت سنة ٤١٥ بتمام القوة ، مستعدة لخوض المعمعان

اطماع الاثينيين بسيراكوسا

فتحولت أنظار الاثينيين الى الغرب . وكان لهم في سيراكوسا مطامع كبيرة . ففكروا انهم بامتلاكها يمتلكون كل سيسيليا . وبامتلاك سيسيليا يمتلكون رومية وقرطجنة ، وذلك يعدل ، في عصرنا ، امتلاك لندن وباريس ونيويورك وطوكيو . فكانت سيراكوسا في أعين الاثينيين مفتاح الدنيا . ولم يكونوا مخطئين بهذا التقدير ، لان

رومية كانت ، يومئذ ، في مهدها ، وقرطجنة لم تخلق بعد . فلو فازت أثينا في سيرا كوسا لما كانت الامبراطورية الرومانية

وكانت أثينا عالمة أهميــة العمل الذي توخته . فساقت على سيرا كوسا أفضل بوارجها ، ووضعت في كل بارجة أفضل رجالها . وجهزت أساطيلها بالمؤن والذخائر . ومخر الاسطول سنة ٤١٥ ، وكله عزيمة وثقة ، قاصداً سيرا كوسا

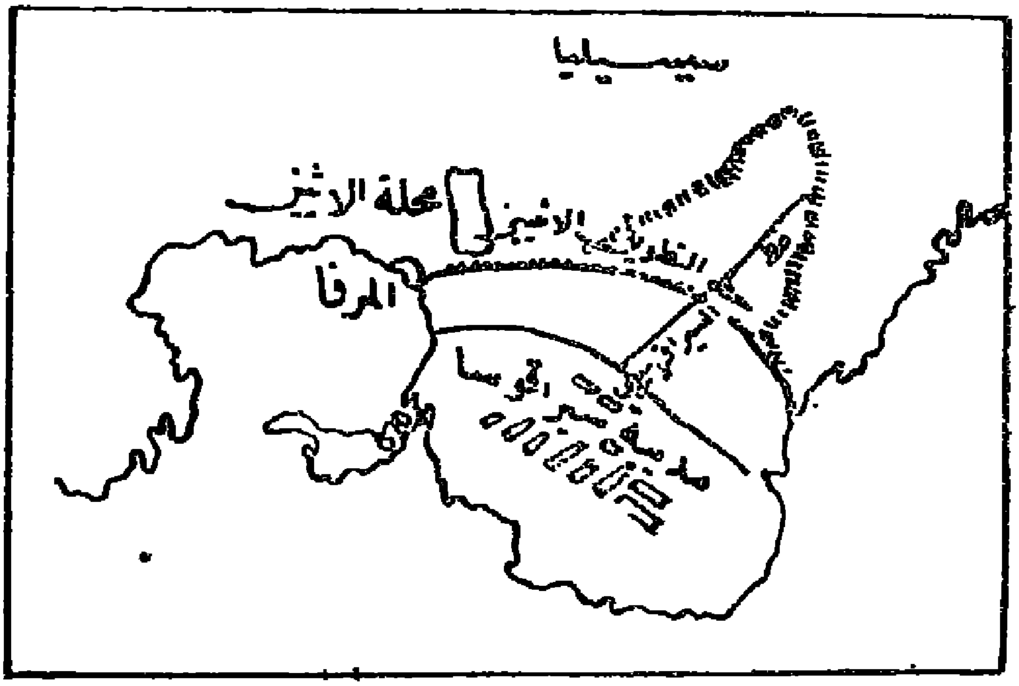
شؤون سيرا كوسا

كان أهالي سيرا كوسا مستبدين بمحيطهم استبداد أثينا بمحيطها . الا أن أثينا فاقتهم حربياً وبحرياً . ولما تسربت الى سيرا كوسا أخبار فكرة أثينا بغزوهم هزأوا بها . ولكن اكبر خطبائهم قال : « ان احتلال اثينا سيرا كوسا ليس مستحيلاً ، فان اثينا أعقل من ان تؤخذ بالوهم . وان اساطيلها تضمن لهــا التسلط على بر ايطاليا ، فتستمد منها كل ما تحتاج اليه لتدمير سيرا كوسا ، ولا يهمها بعدها عن مواردها » . روى ذلك توثيــديدس . وألح ذلك الخطيب على قومه ألا يغتروا بالوهم ، بل ليقوموا للاستعداد لصد هجمات أثينا ، ويدفعوا القوة بالقوة

زعماء الحملة الاثينية

كانت الحملة مؤلفة من ١٣٤ بارجة ، عدا سفن النقل والمهمات وكان قوادها ثلاثة وهم السبياديس ولاماخس ونيسياس . فمــات لاماخس ، وعاد السبياديس الى اثينا للمحاكمة عمــا عزي اليه من التهم . فبقي نيسياس ، وهو ضعيف الرأي ، واهن العزيمة ، لا يصلح لهذه المهمة

وخاف السبياديس أن يصير فيه كما صار باستاذه سقراط ، فهرب الى سبرطا ، وأثار كل بلبونيسس على اثينا ، فكان سبب دمارها . وقد قيل لا يقطع الشجرة الا فرعها . فكان السبياديس



سيرا كوسا ومحيطها

ذلك الفرع الذي قطع أصله . على ان الاثينيين ، بالرغم من ركاكة قائدهم ، كادوا يستولون على سيرا كوسا ، فقد حصروها ، وشادوا حولها سوراً ، كاد يكمل فيفصلونها عن سيسيليا ، ويتمون فتحها . وكان اسطولهم يملك عليها البحر ، فكان أمل فتحها وثيقاً ، وأمل الدفاع عنها ضعيفاً ، فشرع زعماؤها يبحثون في شروط التسليم

مساعي السبياديس في سبرطا

جاء السبياديس سبرطا ، وجعل يخطب فيها وفي كل بلبونيسس ضد أثينا ، بفصاحة لا تبارى . فابان للقوم حراجة موقف سيرا كوسا والفرصة السانحة لصد أثينا عنها . ولو سمح لي المقام هنا لاوردت

خطبة السيباديس ، وهي أشهر من خطبة ملتيادس في مراثون .
وكانت نتيجة مساعيه ان هبَّ خصوم اثينا لمقاومتها وانشأوا أسطولا سلموه لجيلبوس ، وهو من كبراء بلبونيسس . ولم يعطوه مالا ولا رجالا . ولكنهم أباحوا له استعمال اسم سبرطا في استنهاض همم الجالية اليونانية في سيسيليا . وفيما كان أهالي سيراكوسا على وشك التسليم ، وصل اسطول جيلبوس ، وبذل بحارته جهدهم في التجذيف كأنهم ادركوا حرج الموقف ، في الدور الذي يمثلونه في اغرب رواية في تاريخ المدائن ، لانه على سرعتهم توقف مصير تمدن أوربا ، اما يونانياً او رومانياً



السيباديس

وبما أن سفن جيلبوس ليست مما يشغل بال الآثينيين كثيراً لم يتعرضوا لها لما وصلت البر ، فسارت تواً الى سيراكوسا . وحالما صارت على مسمع من رجالها ، صاح بهم جيلبوس ان « قفوا ولا تسلموا » . وأخبرهم ان النجدة آتية اليهم . فعاشت آمالهم وتشددت سواعدهم ، وصارت قوتهم مائة ضعف ما كانت . وصعد جيلبوس الى البر ، وتمكن من جمع الفي محارب ، من المدن اليونانية في سيسيلية

فنظمهم جيشاً جاعلا جرثومته البحارة الذين معه

ديمستينس

على ان اثينا لم يفت في عضدها ذلك فاستدعت نيسياس الضعيف



ديموستينس

من بحر سيرا كوسا ، وعينت بدله ديمستينس المشهور « بالخطيب » وجهزت ٧٤ بارجة جديدة ، زودتها بأفضل البحارة وأوفر المعدات وهم ٥٠٠٠ بحار و ٦٠٠٠ من رماة القسي ، عدا الخدم والمجذفين ولم تكن مواهب ديمستينس الحربية دون أهليته الخطابية ، وكانت

سيرته خالية من كل وصمة . وقد أبدى من الفعال في الحروب البلبونيسسية ما يضعه في مصاف كبار القواد . وكان وصوله الى سيراكوسا كوصول جيلبوس . ذاك وصل والسيراكوسيون على وشك التسليم ، وهذا وصل والاآثينيون على وشك الدمار . وكان أسطول سيراكوسا متأهباً لمهاجمة الاسطول الاآثيني بقيادة ارسطون الكورنثي . وكما حول جيلبوس مجرى الاحوال ، كذلك حولها ديمستينس . فلما وصلت بوارجه ، وصعد رجالها الى البر ، علت أصوات التهليل ، وخفقت قلوب أهالي سيراكوسا ، واعتراهم الوجل وعلموا أنهم خدعوا بتصديق أقوال جيلبوس . ان اثينا ساقطة ، وكل مدن بلبونيسس عليها ، وانه لم يبق لها رمق من الحياة . فرأوا الان ان كل ذلك كذب ، وان موارد أثينا لا تنضب ، وانهم مهددون أمامها بالهلاك .

ادارة ديمستينس

حالما وصل ديمستينس ادرك ان تلة ايبولا هي مفتاح المدينة . ففاجأ حاميتها مفاجأة أصابت المرمى . فزحزحها ، وامتلك الموقع واستعد لتطويق المدينة ، والفوز بشرف فتحها . فرأى أهاليها ان النجدة التي جلبها لهم جيلبوس ستعجل سقوطهم ، لأنها زادت الاآكلين في مدينة محصورة

كارثة الاثينيين

فتقدم الاآثينيون ليلاً بقيادة ديمستينس ، وكان قد جهزهم بمؤونة خمسة أيام ، كانه عازم على حملة بعيدة . وسار بهم في طريق أيبولا الجنوبي ، حتى أشرف على الخندق الغربي العميق . وعندئذ

حول جنوده الى اليمين بسرعة ، وهجم بهم على الهضبة مواجهة ، فامتلكها بتلك المفاجأة . وانتزع مواقف السيراكوسيين الامامية وعززها برجاله . ثم انحدر بالآثينيين طامعاً بافتتاح المدينة . وكانت حاميتها تنسحب من قدامه مخلية مواقعها . ولكن كان الاي جنود من مدينة بواتيا كامناً تحت الهضبة ، أمام أسوار المدينة . فلبث ساكناً ولم يعبأ بما كان يجري حوله من الحركات والانهزام والصيحات ، فلم يدر بهم الآثينيون . وكان فوزهم وطمعهم بالعدو قد حملاهم على ترك النظام فانتشروا حول المدينة شراذم لاغتنام الغنائم ، فحينئذ نهض رجال بواتيا من مكمنهم ، وهم في أكمل نظام ، وأتم استعداد وصدموا الآثينيين صدمة شديدة ، فتشوشوا واضطربت قلوبهم ، واختلت حركاتهم ، وعجز ديمستينس وضباطه عن اعادة تنظيمهم ، وصارت وحداتهم تحارب بعضها بعضاً . وانقلب السيراكوسيون من منهزمين الى فائزين . فانتقموا من الاثينيين شر نقمة عرفها التاريخ ، وكسروا اسطولهم ، وذبحوا رجاله ، وقتلوا ديمستينس ونيسياس شر مقتل ، وباعوا الباقين من جيش اثينا عبيداً .

وختمت غزوة سيراكوسا بكارثة لم تصب اثينا بمثلها . وزال كل خطر يهدد الغرب من اثينا

الحوادث التي تلت معركة سيراكوسا

سنة ٤١٢ : انتقض كثيرون على أثينا لما علموا بفشلها في سيراكوسا
« ٤١٠ : حاولت قرطجنة فتح سيسيليا
« ٤٠٧ : هجوم كورش بحراً على اثينا لمساعدة سبرطا

سنة ٤٠٦ : فتح قرطجنة مدينة اغريجنتم بايطاليا
« ٤٠٥ : سحق اسطول اثينا ومحاصرتها . جلوس ديونيسيوس في سيرا كوسا
سنة ٤٠٤ : سقوط اثينا . ونهاية حرب بلبونيسس بفوز سبرطا
« ٤٠٣ : استعادة ثراسيبولوس حرية اثينا
« ٤٠١ : حملة كورش على أخيه ، ومرافقة العشرة آلاف يوناني له الى بلاد الفرس ، ومعهم الفيلسوف زينون
سنة ٣٩٩ : محاربة سبرطا ستراب الفارسي بقيادة اجيسلاوس
« ٣٩٤ : فتح رومية مدينة « في »
« ٣٩٣ : كسر كونون الاثيني اسطول سبرطا بمساعدة الفرس ترميم أسوار أثينا
سنة ٣٨٨ : ظهور الغال في شمالي أوربا لاول مرة في التاريخ
« ٣٥٩ : ظهور فيلبس المكدوني والد الاسكندر الكبير
« ٤٥٦ : ولادة الاسكندر بن فيلبس
« ٣٤٣ : بدء حروب رومية السمنية ، وتملكها كل ايطاليا
« ٣٤٠ : هجوم القرطاجنيين على سيرا كوسا
« ٣٣٨ : تسلط فيلبس المكدوني على كل بلاد اليونان
« ٣٣٦ : مقتل فيلبس ، وخلف ابنه الاسكندر اياه
« ٣٣٤ : عبور الاسكندر البوسفور الى آسيا لمحاربة داريوس

معركة أربيلا

سنة ٣٣١ ق . م .

انتزاع أوربا السيادة من آسيا

ان دخول الاسكندر المكدوني قارة آسيا عبارة عن فصل خطير مثل على مسرح التاريخ ، وهو براعة استهلال علاقات اوربا بآسيا مدة الفين وثلثمائة سنة الى اليوم

كان اليونانيون يجهدون ، فيما سلف ، لرد غارات الفرس عن بلادهم . فاصبحوا يهاجمونهم في عقر دارهم ، وغلبوهم . فغدا القديم ينهزم من الحديث ، وسقط الكبير أمام الصغير . هذه صورة مصغرة لعلاقات اوربا وآسيا من ذلك الحين

نابليون واسكندر

لا يقدر الرجل الا نده ، حكم مطرد في كل زمن . واليك تلخيص حياة الاسكندر بقلم نابليون . قال :

« عبر الاسكندر الدردنيل سنة ٣٣٤ بأربعين الفاً خمسهم خيالة ، واجتاز نهر جرنا كوس ، بالرغم من مقاومة القائد اليوناني المأجور لقيادة الفرس واسمه « ممنون » وقضى سنة ٣٣٣ . ق . م . يوطد دعائم ملكوته في الاناضول ، ونشر فيها ، وفي كل مكان حله ، اللغة

اليونانية ، والتمدن اليوناني . والتقى بداريوس قرب طرسوس كيليكيا سنة ٣٣٢ ،ومعه ستون الفاً ، فقهرهم . ودخل سورية ، وفتح مدائنها ، ومر بصحراء سينا ، الى مصر ، فافتتح مصر والسودان وطرابلس الغرب ، واختط مدينة الاسكندرية. وعاد سنة ٣٣١ فاجتاز في فلسطين وسورية الى الشمال . وعبر الفرات والدجلة ، وخاض معركة اربيلا ، ففاز فيها على داريوس ، وحل عقد الامبراطورية الفارسية ،



اسكندر المكدوني

وحل محلها . وفتحت عواصم فارس له أبوابها فغشي بابل وبرسيبوليس وسوسا وباسرجاد ، حيث مدفن كورش العظيم . ثم عطف شمالا ، فامتلك شطوط قزبين ، وبلاد الديلم ، واقتص من باسوس الخائن لقتله داريوس . ودخل هندستان سنة ٣٢٧ ، وأسر بوروس ملك البنجاب : وعاد منها سنة ٣٢٦ بثمانمائة سفينة ، سلمها لنيارخس ، عند شط الاوقيانوس الهندي ، وجاز قرمانيا ، ومر ثانية بالعواصم الفارسية ، وعاد الى بابل سنة ٣٢٤ ق . م . »

موقع المعركة

اربيلا بلدة شرقي دجلة ، بينهُ وبين جبال كردستان . تبعد

عن ميـدان المعركة الحاملة اسمها ٢٠ ميلا . وأقرب قرية الى ذلك الميدان هي قرية « جوغميلا » . ويمتد ذلك السهل مسافة شاسعة . وفيه بضع هضبات ، ولكن اكثره منبسطات ملائمة لسير العربات ، وحركات الخيول . فهو في مصلحة الجيش الاوفر عدداً . فاختيار داريوس اياه موقعاً للمعركة الفاصلة من مظاهر أهليته الحربية . لانه واقع في منتصف املاكه ، قريب من مراجعه

جيوش المعركة

نقلا عن تقارير ارستبولس وبطليموس قائدي الاسكندر ، قال :

كان مع الاسكندر أربعون ألفاً من المشاة ، وسبعة آلاف من الفرسان . وكلهم من الكماة المجربين ، الذين خاضوا المعامع والنصر حليفهم . وقد جهزهم بالرماح الطوال ، والسيوف الصقال ، وجعل سمك المربع ١٨ صفاً . وكانت رماحهم تمتد من مقبضها ١٨ قدماً . فكان أمام المربع المكدوني جدار من الاسنة ، لا يقوى بشر على اختراقه . وكانت جنود المربعات مع اسكندر ١٨٠٠٠ مقسومة الى ستة الايات ، في كل ألاي ثلاث فصائل . ثم حملة التروس ، وعددهم ٦٠٠٠ ، وأسلحة هؤلاء خفيفية ، بعدهم المشاة ولا أعلم كم عددهم . ثم رماة النبال ، فالضاربون بالمقلاع ، فرجال السيف العريض . وفرقتان من الخيالة ، هما الفرقة التسالية والفرقة التراكية . هذا هو جيش اسكندر

أما جيوش داريوس فكثيرة العدد . وفيها ، أولا : الجبليون من أفغانستان وتيبت وبخارى وخيوا . ثانياً : الفرسان من كردستان

وتركستان ، وشيوخ بكتيريا . ثالثاً : السكيثيون ـ الروس ـ ومعهم ١٥ فيلاً و ٢٠٠ عربة كبيرة . رابعاً : رماة النبال من مناطق البحر الاحمر

مقدمات المعركة

عبر الاسكندر الفرات وسار شرقاً ، تاركا أسفل العراق ، بعواصمه الغنية ، عنة . ولما علم ان داريوس في اربيلا اسرع فعبر الدجلة . وواصل مسيره شرقاً ثلاثة أيام ، وفي اليوم الرابع أتته التقارير ان قد ظهرت طلائع جيوش داريوس. فاعد جيشه للصدام ، وسار صحبة كوكبات من الفرسان يجوس خلال الديار . فالتقى ببعض الجنود الفرس ، وأسرهم ، فعرف منهم ان داريوس على بضعة أميال منه ، وعرف أيضاً ما معه من القوات

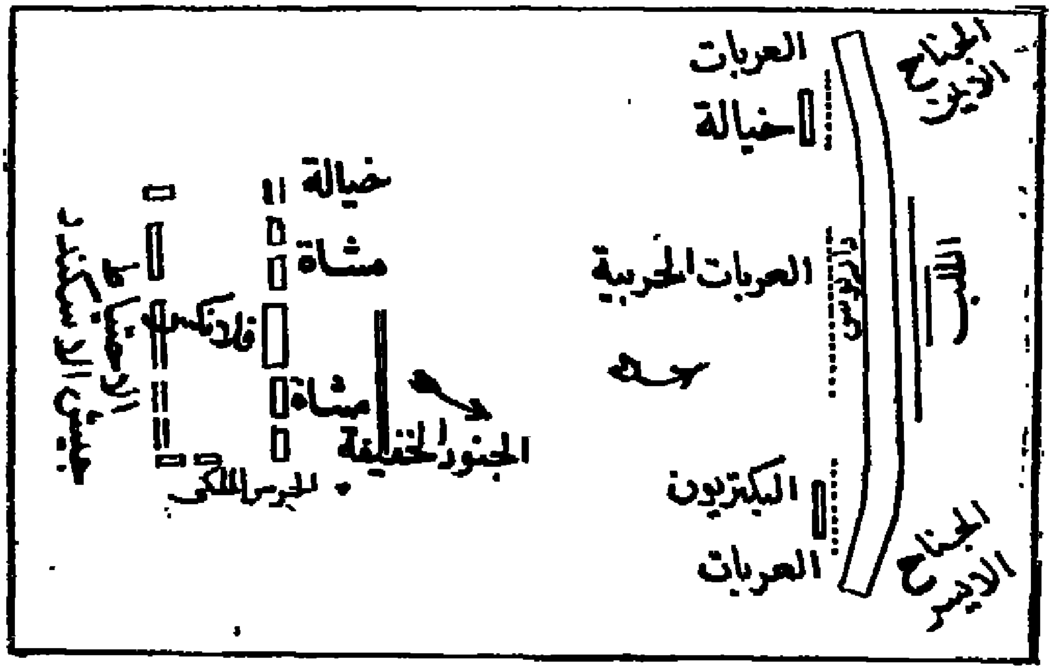
فاراح جيشه اربعة أيام ، ثم استأنف المسير شرقاً ، في أول الليل ، على أمل اصلاء الفرس المعركة الفاصلة في صباح الغد . ولما بلغ الانشاز أمامه ، ظهرت له جيوش الفرس تملأ السهول . فحلّ هنالك بيع عسكره ، وأبى أن يهاجم الفرس ليلا ، كما اشار عليه بعض قواده . وفي النهار التالي كان كل من داريوس والاسكندر يتوقع أن يكون خصمه البادىء بالهجوم . ونام الجيش المكدوني ، أما الجيش الفارسي فلم ينم ، بل سهر كل الليل ، متوقعاً الهجوم ، ولا هجوم . فأصبح المكدونيون مرتاحين والفرس متعبين

ترتيب الجيوش

جيش داريوس : كان في جناحه الايسر البكتريون والدانيون والارغوسيون ، يلي هؤلاء فرسان الفرس ومشاتهم ، فجنود سوسا

وقادس . وأمام هذا الجناح السكيثيون معهم مائة عربة، وألف خيال بكتريانى

وكان داريوس في القلب ، حوله الهنود والكاريون ورماة النبال المردياثيون ورماحة الفرس، الذين على سنان رماحهم تفاحات الذهب ، والبابليون . وكان في القلب الى جانبي داريوس فرقة اليونانيين وهم المستأجرون . وأمام القلب ١٥ فيلا و٥٠ عربة سكيثية



رسم الجيشين في اربيلا

وفي الجناح الايمن الارمن والفرثيون والماديون والهركانيون والكيليكيون والعراقيون والتابوريون والساسانيون والالبانيون . وأمام هذا الجناح خمسون عربة . وكان داريوس يعلق على العربات الكبرى اكبر الآمال

وفي صباح أحد أيام اكتوبر منذ ٢٢٥٨ سنة ، فتح الفرس عيونهم ، فاذا رجال الاسكندر ينهضون من نومهم على صوت البوق ،

وهم يتأهبون للقتال . وقد رتبهم الاسكندر حسب خبرته في خطين، الخط الامامي جبهة القتال ، والخط الخلفي احتياط

ففي الجبهة جناحان وقلب

الجناح الايمن : فيه الفرسان مقسمين الى ثمان فرق لكل فرقة قائد . وهم على الترتيب ، من أقصى الجناح الى القلب

١ كايتوس ، ٢ جلوسياس ، ٣ أريسطون ، ٤ سوبوليس ، ٥ هيركليدس ، ٦ ديمترياس ، ٧ مليـاجر ، ٨ هيجلوخس . وقائد الفرسان العام هو فيلوتاس . يلي الفرسان حملة التروس المشاة. وقائدهم نيكاتور . وكان الاسكندر في هذا الجناح

وفي القلب المربعات في ستة آلايات بقيادة كانوس وبارديكاس وملياجر وبوليسبرخون واميانياس وأمينياس

الجناح الايسر : وفيه المشاة بقيادة كروتيرس ، ثم خيالة ثساليا بقيادة فيلبوس . وكان القائد العام للجناح الايسر بارمنيو ، يحيط به فرسان الفرساليين ، وهم أفرس التساليين . وخيالة الحلفاء بقيادة اريغويس

هذا ترتيب الجبهة . أما الخط الاحتياطي فكان هكذا :

يؤلف قلبه من مربعات مستعدة لامداد من يضعف في الجبهة والى يمينهم الاحتياط المشاة وهم وراء فرسان الحرس . ومعهم أرباب القسي المكدونيون . ووضع في هذا الخط فرسان منيداس واريتس واريسطون . ومثل ذلك في الجناح الايسر . وكان في أقصى ميسرة هذا الخط الخلفي اندروماخس

وكانت الحذاقة التي أبداها الاسكندر في ادارة معركة اربيلا مثلا في فن القيادة

المعمعان

نحن الآن في جو دجلة في طيارة انجليزية ، وتحتنا ميدان اربيلا . وقد لاحت الشمس من وراء جبال كردستان . ونشرت أشعتها على الجيشين اللذين يمثلان اوربا وآسيا . يقود الاول الاسكندر والثاني داريوس . وها قد بدأ القتال بأمر داريوس عربات السكيثيين أن تهجم على جناح الاسكندر الايمن . فارسل الاسكندر فرسان منيداس (في الخط الخلفي) لصدهم . ولما تبين له أنهم قلائل أتبعهم برجال أرسطون والكلياندريين . وكانت خسارتهم أولا هائلة . لكنهم ثبتوا ، ثم رجحت كفتهم ، بما فيهم من خبرة ونشاط . وكانوا يحاربون في مربعات متساندة . ثم وجه داريوس عربات السكيثيين على قلب الاسكندر ، يرافقها الفرسان لاغتنام الفرص . فصد هؤلاء مشاة السلاح الخفيف بقيادة كراتيروس ، فكانوا يجرحون الخيول بحرابهم ، فتثور وتخبط الارض بيديها فتحطم العربات . وفسحت الجبهة لباقي العربات فسارت الى مؤخرة الصفوف اليونانية ، حيث أضحت عديمة النفع .

حينئذ تجمع اكبر عدد من فرسان داريوس ، وهجموا على جناح اليونان الايمن (حيث الاسكندر نفسه) . فتلقاهم اريتس وهو الباقي في خط الاحتياط الخلفي . وكان يرقب الحركات ، فتمكن من صدهم . كل ذلك ولا تزال جبهة الاسكندر سليمة ، على قدم الاستعداد

فهبت كتائب فرسان كثيرة في جيش داريوس لانجاد اخوانهم وبذلك فتحت ثغرة في جبهة داريوس . بين الميسرة والقلب . وهي الفرصة التي كان الاسكندر يتوقعها . فاندفع اليها بحرسه الخاص ، واخترق الجبهة الفارسية . فصارت ميسرة الفرس بين نارين ، فيلوتاس ونيكانور من الغرب ، واسكندر من الشرق . فانبث حملة التروس المكدونيون بين الفرس وأبلوا فيهم بلاء حسناً . وهبطت خمسة آلايات المربعات على اليونانيين المستأجرين في جيش داريوس فاخترقوها . واذ ذاك صارت الجبهة الفارسية ثلاثة أقسام منفصلة . الاول الجناح الايمن وجزء من القلب . الثاني الجناح الايسر بين الاسكندر ونيكانور ، والثالث القلب أمام المربعات المكدونية . أما الجبهة المكدونية فلم تزل متصلة

وأبدى داريوس من الحنكة والثبات ما يليق بموقفه . وأخيراً تشنجت أعصابه ، فنزل من عربته ، وركب أسرع حصان ، ودار به شرقاً ، وارخى له العنان ، وترك المعركة ولسان حاله يقول

بنفسك فز اذا ما شمت ضيما وخل الدار تنعي من بناها

مع ان المعركة في جناحه الايمن كانت الى تلك الساعة في صالحه . ولما تقدم الاسكندر بميمنته حدثت ثغرة بينه وبين بارمنيو فاندفع اليها الهنود والفرس ، واجتازوا الجبهة الى المحلة ، وشرعوا في النهب ، ولو داروا ببرمنيو لكان أفضل لهم ، وربما كانوا افنوا ميسرة الاسكندر . وكان برمنيو ملتزماً خطة الدفاع فلم يحد عنها . وأسرع سيمنياس فانجده بكل قوته . وكان الاسكندر قد عين الاياً لخفارة المحلة فصد هذا الناهبين . وبلغ الاسكندر استغاثة بارمنيو

فارتد عن الفرس لانجاده ، وفي عودته التقى بالناهبين مرتدين فضاقت بهم السبل ، ولم يجدوا ندحة من اختراق صفوف الاسكندر . وهنا حدثت أشد مشاهد الحرب هولاً

. لان هذا الاختراق اقصى ما يمكن تصوره من المخاطرة في القتال. ولا يركب هذا المركب الا في احرج الازمات وأشدها خطورة.

وكانت النتيجة ان الهنود والفرس فنوا تقريباً . ولكنهم قتلوا كثيرين من حرس الاسكندر ، وفيهم بعض قواده . ولما وصل الاسكندر الى جناحه الإيسر وجد ان بارمنيو قد تحسن موقفه وربما كان من عوامل ذلك تأثير هرب داريوس في نفسية الجيشين

فعاد الاسكندر يطارد داريوس ، وكان يعنى شديد العناء بانقاذ حياته . فر داريوس باربيلا ، ولم يقف بها ، بل واصل سيره حتى بلغ حدود قزبين ، حيث اغتاله باسوس حاكم بكتريا . وبلغ الاسكندر اربيلا في اليوم التالي ، فاستولى على كنوز داريوس ، وكان يفصل بين الميدان وأربيلا نهر ليكوس . فتجمعت جنود الفرس المنهزمة على جسر ذلك النهر ، فهدمه المكدونيون بهم ، فهووا الى النهر وماتوا غرقاً

هكذا انتهت معركة اربيلا ، وانتزعت أوربا الصولجان من أسيا

وبعد بضعة أيام انحدر الاسكندر جنوباً ، واستولى على بابل عاصمة أول امبراطورية في الدنيا . ففتحت بابل أبوابها للاسكندر وهي نقطة التحول في التاريخ

الحوادث التي تلت معركة اربيلا

سنة ٣٣٠ : ثورة اللوسيديمونيين (أهالي سبرطا) ضد الاسكندر وقمعها.

سنة ٣٢٧ : توغل الاسكندر في التتار والسند والهند

« ٣٢٦ : احتلاله البنجاب والمولتان وأفغانستان وبلوخستان

« ٣٢٤ : جلوسه على عرش بابل ، وقد دوخ الدنيا ، وهو ابن ٣٢ سنة

وتقبل الاسكندر من الكلدانيين اكرام الآلهة . وكتب له استاذه ارسطو يؤنبه على ذلك

سنة ٣٢٣ : موت الاسكندر في بابل

« ٣١٧ – ٢٨٩ : نكبة ديونيسيوس ملك سيراكوسا في قرطجنة

« ٣٠٦ : انقسام مملكة الاسكندر بين قواده الاربعة العظام فكانت :

١ – سورية . وما وراءها شرقاً الى حدود الهند لانطيوخوس
٢ – مصر . وما وراءها لبطليموس
٣ – أناضوليا لسياخس
٤ – اليونان لانتيمونوس

سنة ٢٩٠ : اتساع نطاق رومية . واخضاعها ابيروس

« ٢٦٤ : حروب قرطجنة الاولى

« ٢١٨ : ثورة العمال في قرطجنة . و[illegible] دوا يدمرونها

معركة متورس

سنة ٢٠٦ ق . م .

« لقد أتم القنصل الروماني ، نيرو بخديعته هنبال وقتل أخيه هسدروبال عملاً عديم المثال في تاريخ الحروب في كل العصور

وكان رأس هسدروبال المتدحرج على الارض أمام هنبال أول خبر بلغه عن تغيب نيرو عن ميدانه . فقال هنبال حينئذ وهو يرى رأس أخيه يتدحرج على الارض « لقد أصبحت رومية سيدة الدنيا »

(بيرون)

في منتصف الطريق . بين ريميني وانكونا جدول ماء يصب في الادرياتيك . يدعى متورو . وهو يحمل ذكرى المعركة الفاصلة التي شبت على ضفافه ، بين نيرو وهسدروبال ، فخبطت عندها مساعي بني هملقار ؟ وفازت رومية بالسيادة الكونية . وقد ورثت عنها اوربا هذه السيادة ولا تزال . ومن ثم زال كل خوف من استئناف الاسيويين تلك الزعامة

صفة المعركة فلسفياً

قال ميشاليت الفرنسوي في كتابه « التاريخ الروماني » ولم تخلد الحروب القرطجنية في ذاكرة بني الانسان بدون سبب لانها لم

تكن عراكا بين مدينتين ـ رومية وقرطجنة ـ ولا بين أمتي الفينيقيين والرومان ، بل كانت عراكا بين جنسين من الاجناس البشرية وهما السامي والارياني . في الجانب الواحد الفرس واليونان والرومان والجرمان وفروعهم في أوربا . وفي الجانب الثاني اليهود والعرب والفينيقيون والقرطجنيون . في الجانب الواحد الفروسية والفن والاختراع . وفي الآخر الصناعة والتجارة والبحرية . وقد طال العراك بين الفريقين بين فرسان الفرس وصناع الكلدان ، وبين الفن اليوناني والبحرية الفينيقية ، وبين الاشتراع الروماني والتجارة القرطجنية . وكانت معركة متوروس فصل الخطاب . ومرت أجيال قبلما تجدد هذا العراك بين العرب وبين أوربا . ولكن سيادة الجنس الارياني صارت راسخة القدم وستظل الى ما شاء القدير

مزايا رومية

امتازت رومية على قرطجنة بأمور :

أولها : كثرة الرعايا التابعة لها في سوق المدنية . وهي شعوب أوربا ، فرنسا وانكلترا واسبانيا وجرمانيا . بينما لا نرى وراء قرطجنة إلا رمالا ثائرة وصحارى جرداء

ثانيها : مصادر قوتها العسكرية . كانت جنود هسدروبال خليطاً من الهن والفندال . ولو اعتمدت قرطجنة على أولادها لما كان لها جيش يقف في وجه رومية . بينما جيوش هذه ملأت السهل والجبل وهم من ابنائها

ثالثها : منزلة الامة تجاه الفرد . فقد كان مستوى قرطجنة

دون منزلة هنبال بمراحل ، ولكن مستوى رومية لم يكن دون منزلة كبار قوادها

ما هي قرطجنة ؟

برحت حملة سورية شطوط فينيقية ، في القرن الثامن ق . م . واتت شطوط شمالي افريقية ، حيث تونس اليوم . واختطت هنالك مدينة دعتها قرطجنة . فنمت تلك المدينة ، وسادت على أخواتها ، هبّو ، وأوتكا ، وقيروان . واتسعت تجارتها ، وملكت سرديني ، وقسماً من سيسيليا . وضربت كورسيكا ، وجنوبي اسبانيا . وصار غربي البحر المتوسط بحيرة قرطجنية . واخترق بحارتها بوغاز جبل طارق الى الاتلانتيك ، لاول مرة في تاريخ البحرية . فسار هانو (حنا) القرطجني محاذياً شطوط افريقية الغربية الى سيراليون . وسار هملكو شمالا الى البحر الجرماني ، فلامس شطوط بريطانيا وايالات البلطيك ، في طلاب التنك . وكانت شعوب قرطجنة اربع طوائف . ١ الفينيقيون وهم ملوك البلاد . ٢ الخلاسيون وهم حكام المستعمرات ٣ البرابرة ٤ السود . والاثنان الاخيران كالعبيد

وكان للقرطجنيين منزلة عالية في فن الزراعة ، وقد دهش شيبو لما رأى حولها من الارتقاء الزراعي . فكان محيطها جنات . تجري من تحتها الانهار . فكانت نتيجة اشتغالهم بالزراعة والتجارة والبحرية انهم أحرزوا ثروة طائلة . وأصبحوا ينازعون رومية السلطة على جنوبي أوربا ، بل على ايطاليا نفسها . ولولا رومية لكانت قرطجنة لا قسطنطينية سيدة أوربا في التاريخ القديم . ولو قهرت رومية لكانت باريس وبرلين ولندن وفينا مستعمرات قرطجنية

اشتهر هذا الرجل ببغض رومية ، كما اشتهر بالقيادة والسياسة. وقد ولد ثلاثة وهم ، هنبال وهسدروبال وماجو . ولما كان عمر هنبال تسع سنوات حمله ابوه على ذراعيه الى مذبح الالاهة ، وقاده بالقسم العظيم ان « لا يصفو لرومية ، ولا يتأخر عن تدميرها ما عاش » . ولما مات والده كان ابن ١٨ سنة فبنى على أساس والده كالاسكندر المكدوني . وكان خصم رومية اللدود . وكان أخوه هسدروبال شريكه في القيادة ، وفي بغض روميه . فحارباها عشرة أعوام . وفي الحادي عشر كانت المعركة الفاصلة بينهما وبينها



هنبال

جاء في التاريخ العام لمابر « وجاء هنبال من اسبانيا فقطع جبال بيرينيه والالب ـ لاول مرة في التاريخ ـ وهبط على لمبارديا ، فكسر جيش رومية بقيادة كورنيليس شيبو الشهير ، على نهر تيسينوس . ثم كسره مع سمبرونيوس في معركة ترابيا سنة ٢١٨ ق . م . ثم عبر جبال ابنين : وكسر الجيش الروماني عند بحيرة تراسيمينوس سنة ٢١٧ ق . م . ثم كسرهم عند كانا سنة ٢١٦ بقيادة بولوس وفاروس ، وعدد جيشه اقل من نصفهم ، ويقال انه أهلك من رومية ٧٠٠٠٠ وأسر ١٠٠٠٠ . وجاء أخوه هسدروبال من

اسبانيا لنجدته . فقفى على آثاره ، وعبر جبال الالب سنة ٢٠٧ . ولم يلق الصعوبة التي لقيها أخوه في قطعها

حربية قرطجنة

أعظم الفروقات الحربية بين قرطجنة وبين رومية هو ان عمدة المحاربين في رومية هم من ابنائها بخلاف قرطجنة ، فان عمدة محاربيها اما من المستعمرات او مستأجرين . فكانت أوقات القرطجنيين أثمن من أن تقضى في خوض المعامع . فكانوا منصرفين الى التجارة وحشد المال ؟ ويعتمدون في حروبهم على الخدم والمأجورين

القائدان

كان همُّ رومية أن تنتقي قائداً تعتمد عليه لخوض المعمعان أمام ابني هملقار . فعينت قائدين ، هما كلوديوس نيرو ، ومرقس ليفيوس . الاول تجاه هنبال ، والثاني تجاه هسدروبال . وفيما كان نيرو أمام هنبال — في الجنوب — وقع بيده كتاب مرسل من هسدروبال ، يخبر به أخاه هنبال أن يتجنب الاشتباك مع نيرو بمعركة ، حتى يلتقيا ، فيتوجها معاً الى رومية . فرأى نيرو أن الوقت أثمن من أن يضاع . وكان أمامه صعوبتان

الاولى : العداء بينه وبين القائد الثاني ليفيوس . والثانية : القانون الروماني الذي يحظر على القائد أن يخرج عن الحدود المعينة له من قبل المجلس . ولكن للضرورة أحكام . فان الضرورة تقضي بالعجلة ، واذا انتظر حتى يستأذن المجلس الروماني ، فقد يفوت الوقت . وربما وصل القرار لايدي بني هملقار قبلما يصل ليده . فكان أمامه اما سقوط رومية أو كسر القانون فاختار أصغر

الشرين . لانه علم ان القانون لاجل رومية لا العكس . فترك بعض جيشه تجاه هنبال ، وأمرهم ألا يتقدموا، ولا يشتبكوا معه في معركة فكان هنبال يظن ان نيرو أمامه . ولكن نيرو انتقى من جيشه ٧٠٠٠ ، وسار بأقصى سرعة الى حيث ليفيوس . وأرسل يخبر رومية بحركته ، وأرسل لها كتاب هسدروبال ليقرأ في مجلس الشيوخ . وأشار عليهم أن يرسلوا الكجثونين ، حالا الى ناريتا ، للمحافظة على معبر فلامينا ، في ما لو تقدم هسدروبال من تلك الناحية . ثم ارسل يخبر ليفيوس بالامر ، ويطلب منه ان يعلم السلطات في الطريق لتعد له المؤن اللازمة . وألا ينصب خياماً جديدة للجيش الذي معه ، بل يهيء ما يلزم لتوزيعه على خيام الجنود هناك ، وألا يلاقيه باحتفال ، ولا بالابواق . فانه سيصل اليه ليلا متستراً ، حتى لا يشعر هسدروبال أن قد وصل جيش الى ميدانه

ولما دنا من محلة ليفيوس كشف الامر لرجاله ، وهنأهم لانه أتيح لهم الاشتراك بهذا المجد الخالد . وكانت المدن في طريقه ترافقه بمحبتها وصلواتها ، لانها كانت تخشى بطش بني هملقار . وقامت رومية لاخباره وقعدت ، لانها رأت أنها امام أحرج مأزق في تاريخها . فوصل نيرو الى ليفيوس ليلا ، كما رتب . ووزعوا جيشه على خيام رفاقهم . وفي الصباح قام الرومان للحرب ، ولم يكن هسدروبال راغباً فيها ، مع انه لم يعلم بمجيء نيرو الى ميدانه . ولما اصطف الجيشان انكشف له الامر ، لانه سمع أبواقاً لم يكن يسمعها قبلا ، ورأى وحدات لم يرها كذلك . فتنكب عن القتال . وذلك من مزايا كبار القواد . ومرّ ذلك النهار بدون حرب . وفي أول الليل قاد

هسدروبال عسكره بهدوء قاصداً الانسحاب من هناك شمالا ، عابراً النهر . ولكن الادلاء خانوه ، وتركوه على شط النهر في الظلام حيث لا يمكن العبور . فكان الجنود يطوفون كل الليل على الضفة ، دون أن يهتدوا الى معبر . ولما أصبح الصباح ، وقد اضناهم التعب والنعاس ، اذا طلائع جيوش ليفيوس ونيرو تطاردهم ، فلم يكن لهسدروبال ندحة عن خوض المعركة . فأمر جيوشه بالاستعداد بما يمكن من السرعة ورتبهم افضل ترتيب

أوصاف الجيشين



ميدان ميتوروس

جيش هسدروبال : كان خليطاً من كل العناصر ، متمدنين وهمج ، سود و بيض ، قرطجنيين وفينيقيين كل هؤلاء كانوا في القلب - وخيالة الصحراء على خيل بدون أعنة ، وهؤلاء يؤلفون الجناحين -

يتقدم جبهته الضاربون بالمقلاع ، والفيلة والحرس الحبشي . وكان معه اسبانيون يحملون سلاحاً خفيفاً ، فوضعهم في الجناح الايمن . ووضع مشاة الغوريين والغاليين في القلب

الجيش الروماني : تألف كل لجئون من فصيلتين ، هما الهستانية والبرنسيبيس ، وعدد كل منهما ١٢٠٠ جندي . وهم يلبسون الزرد على صدورهم وبعضهم يرتدي الصفاح وجراميق النحاس على الرجلين والخوذ ويحملون التروس الاهليليجية والحراب الصغيرة . وكانت الهستانية في الميدان قدام البرنسيبيس وسمك المربع عشرة صفوف وبين كل صفين ثلاثة اقدام . ولكل لجئون ٦٠٠ احتياط مستعدون للنجدة ، او لسد الفراغ في الصف . وكان نيرو في الجناح الايمن . وليفيوس في الايسر ، ويورسيبوس في القلب

لم يفلح ليفيوس ويورسيبوس أمام هسدروبال ، بل ذبح منهم مذبحة هائلة ولولا نيرو لافناهم . وأزعجتهم الفيلة ، وأخلت صفوفهم وكان نيرو يجاهد عبثاً ضد التلة التي عليها الغال . واخيراً عمد نيرو الى الحيلة . فقام بحركة فنية كانت ناجحة . وهي انه ساق أحد آلاياته الى مؤخرة الرومان ، ودار بهم حولها وبغت الاسبانيين والافريقيين فاضطرب نظامهم ، ولكنهم ثبتوا حتى فنوا . وعندئذ طوق الغاليين وذبحهم على بكرة أبيهم . فلما رأى هسدروبال ذلك ، وان الانكسار ضربة لازب ، ركب حصانه ، واطلق له العنان هاجماً على قلب الجيش الروماني حيث قتل ، فمات ميتة مجيدة تليق بابن هملقار

فقفل نيرو راجعاً بالسرعة التي جاء بها ، وهو يحمل رأس هسدروبال . ولما وصل الى موقعه أرسل الرأس لهنبال فالقوه أمامه

فصاح لما رأى رأس أخيه صيحته المشهورة . « الآن صارت رومية سيدة العالم »

تأثير الانتصار في رومية

كان الفوز الذي احرزه نيرو في معركة ميتوروس فاصلا . فقامت رومية بمظاهرة جنونية . ولم يصدقوا أولا خبر الفوز ، حتى وصل ثلاثة من ضباط المعركة . فخرجت كل المدينة لاستقبالهم ولما قالوا لهم « كسرنا هسدروبال وقاصلنا سالمون » اشتد وعظم الفرح والسرور . وحملوا الضباط الى مجلس السنات ، ثم الى مجلس النواب وشرح لهم لبسيوس فيتوريوس ، أصغر الضباط ، تفاصيل المعركة وهم يسمعونه صامتين ، كأن على رءوسهم الطير . ولما انتهى علت صيحات المجلس الى الجو وعيدوا ثلاثة أيام . وشكروا الآلهة على النجاة من الفضيحة . واستتب الامر لاوربا غير منازعة

مجرى الحوادث بعدها

سنة ٢٠٥ ـ ٢٠١ : تعين شيبو قنصلا ونقل الحرب الى افريقية فاضطر هنبال ان يبرح ايطاليا للدفاع عن قرطجنة

سنة ٢٠٠ : فوز الرومان في مكدونية وسيطرتهم على كل اليونان

« ١٩٤ : محاربة انطيوخوس وانكساره نهائياً في مغنيسيا

« ١٤٦ : هدم قرطجنة واخضاع أسبانيا بعد حرب ٧٣ سنة

« ١٠٦ : قهر جوغرثا ملك الحبشة

« ١٠١ : قهر الجرمانيين بعد حرب ١٢ سنة

« ٦٤ : الاجهاز على مثراداتس ملك بنتس بعد حرب ٢١سنة

سنة ٥٠ : فتوحات قيصر في غاليا (فرنسا)

« ٤٨ ـ ٤٥ : منازعات قيصر وبمبيوس ، والتجاء هـذا الى مصر . حوادث كليوبطره

سنة ٤٤ : مقتل يوليوس قيصر وهو اشهر حوادث ديموقراطية رومية

سنة ٣١ : فوز اوكتافيوس على انطونيوس وكليوبطرا المصرية

« ٤٤ : تملك اوغسطس قيصر . وفي عهده بدأ التـاريخ المسيحي بولادة يسوع المسيح

فوز أرمينيوس

سنة ٩ م .

في السنة الخامسة للميلاد ، ذهب كونيليوس ڤاروس من سورية الى روميه ، وعين قائداً للجنئونات الرومانية في جرمانيا . وكان ڤاروس نموذجاً رسمياً للطبقة الرومانية العالية ، من حيث العناية بفنون اللغة وآدابها ، مع الميل الشديد للمسرات والملاهي ، والمعرفة الدقيقة في أصول الشرائع والمحافظة عليها عملياً ، والرغبة الشديدة في الخطابة . وعدم الاكتراث بعواطف الآخرين وآلامهم ، شأن أمم الغلب في كل العصور . وأهم ما أذكره من تلك الاوصاف هو الانغماس في الرذائل والموبقات . فقد وسع ڤاروس نطاق الاستباحة بين الشبيبة الجرمانية . ونسج على منواله القواد الرومانيون . وكانت طقوس الرومانيين الدينية ، التي اقتبسوها من اليونان ، تنطبق على هذا المشرب غير الأدبي . وكان الذوق الجرماني الادبي البدوي ، ينفر من ذلك شديد النفور . فحدا بهم ذلك الى سلوك مناهج التمرد على رومية . ويهمنا أن نعرف شيئاً عن هؤلاء الجرمانيين وصفاتهم ومنزلتهم في التاريخ

وغلب عليهم بعد الحرب العالمية اسم « الالمان » وكانوا يدعون قديماً البرابرة أو البربر . وهم غير برابرة شمالي أفريقيــة . كانت عشائرهم في أوربا قبل المسيح بنحو ٥٠٠ سنة . وكانت يومئذ بدوية هبطت على لمبارديا ، بطريق جبال الألب ، وكانت ألد خصوم رومية فلما مر بهم هسدروبال ، قادماً من اسبانيا لمحاربة رومية ، تطوع كثيرون منهم في جيشه

وقد جئت شمالي ايطاليا ، بطريق نفق شمبليون ، وحللت بعض مدائنهم ، وعاشرت أهاليها ، ولاحظت مسالكهم وتمدنهم ، فوجدتهم أرقى الشعوب التي على وجه الارض ، وأقربها الى القلب

قسمت الشعوب الجرمانية ، في أخبار الرومانيين ، الى قسمين ، وهما التوتون والسلت . فمن الاولين أرمينيوس صاحب الوقائع التي هي موضوع هذه المقالة

مدّ يوليوس قيصر الروماني أول جسر على نهر الرين سنة ٥٥ ق . م . ودخل بلاد الجرمانيين ، وأخضع بعض قبائلهم لرومية ، وضم الى نهر التيبر أنهار الرون والسين والرين والتاغوس . ويجب أن تكون وستفالي أول بلد جرماني خضع لرومية . وكان من سياسة رومية في تلك الايام أن توجه عنايتها نحو أبنــاء العشائر ، ولا سيما أبناء رؤسائها ، فكانت تعلمهم وتوظفهم . كما تعمل انجلترا في السودان في هذه الايام. وكان من بين الشبان الذين دخلوا مدارسها ، وحصلوا على التهذيب والادب الروماني اخوان من عشيرة الشيروسيين ، هما

أرمينيوس وفلافيوس . فتوظف فلافيوس في الجيش الروماني ، أما أرمينيوس فظل حراً

تسيلدا

قال نابليون « فتش عن المرأة » ، ويصح أن نبدأ البحث في كل تاريخ بالتفتيش عن المرأة ، كما يتضح لك من حكاية أرمينيوس وتسيلدا . وهي ابنة أحد رؤساء العشائر الجرمانية التي خضعت لرومية وقد كانت تسيلدا ، عن غير قصد منها ، سبب تحرير أوربا من نير الدولة الرومانيـة ، وأساس التمدن السكسوني . وهي فتـاة حسناء ، طلبها أرمينيوس من أبيها سجتس ، فابى أن يعطيه اياها . لانه عرف ان أرمينيوس عدو لروميـة ، وخشي مغبة أمره ، فرأى من حسن السياسة ألا يعطي ابنته لثائر تخشى عواقب حاله. وكانت تسيلدا تحب أرمينيوس . ولم تكن شريكة والدها في سياسته ، فمـدّت يدها لارمينيوس ، وهربت معه . فتزوجهـا ، وحملت منه ، فثار أبوها لاستردادها . وشكاه للحكومة الرومانية ، مدعياً انه اختطفها عنوة ، وانه ثائر على حكومة رومية . فاستردت الحكومة تسيلدا من أرمينيوس وكانت في آخر مدة حملها . فابدت مقاومة عظيمة جداً ، وجهرت بحبها لارمينيوس . فسلمها أبوها لجرمنيكوس الروماني ، فارسلها هذا الى رافنا في ايطاليا . فولدت هنالك ولداً ذكراً ، ولما كان عمر ولدها أربع سنوات ساقه الرومان في موكب النصر . فثـارت نفس ارمينيوس على الرومان المستعمرين ، وعلى حلفائهم الخائنين ، كحميه سجستس وأخيه فلافيوس . فرفع علم الثورة ، وانضم اليه كثيرون . وأهم ما يدفع الناس للثورة عطفهم على النساء والبنين

كان الموقف في جرمانيا في تلك الايام مظلماً ، يروع أكابر الرجال . فكانت رومية تحتل نصفها ، وكل البلدان غربيها ، وهي فرنسا وبلجيكا وانجلترا واسبانيا وبرتوغال . وكان كثيرون من الجرمانيين يؤيدون سياستها وينصرونها ، كما هو الحال في المستعمرات في كل العصور . فانه عادة يقسم الناس الى قسمين : قسم معه وقسم عليه . والذين معه هم عادة المنتفعون والمأجورون . فكيف يحارب أرمينيوس رومية ؟ وأين ؟ . ليس له مدينة مسوّرة ، ولا مخازن عسكرية ، ولا تدريب حربي . أفيثبت ارمينيوس أمام رومية ، وقد سقط في ميدانها هنبال وأخوه ؟ . وكانت جنود رومية منظمة أفضل تنظيم ، ومدرّبة أتم تدريب ، ومسلحة بأرقى سلاح . وعندها المربعات الرومانية – فلانكس – التي يخرط القتاد ولا تخترق . فكيف يثبت أمامها عديم الموارد والقوى ؟

على انه لا يفوتني أن أذكر ان الحالة الروحية في رومية في عصر ارمينيوس هي غير ما كانت قبل مائتي سنة . فان الروح العسكرية التي دوخت البلدان قد ذبلت ، وانقلب نظامها الجمهوري ، فصارت الآن امبراطورية ، خاضعة لمشيئة الفرد . وأهم من كل ذلك :

« أنها انغمست في الشهوات الاثيمة ، ولا تقوى أمة انغمست بها »

هو شأن ، او شرك ، الامم الظافرة تتمتع بطيبات غيرها ، فتكون لها تلك التنعمات والملاذ مزالق تهوي بها من حالق مجدها ، الى درك الهوان ، والدمار يلي الانحطاط الادبي في كل العصور . هكذا جرى للاسبانيين والاتراك وغيرهما من الامم في كل عصر

ومصر . فقد بدأت نهاية رومية . وكانت تلك البداءة كامنة في نفس وجودها الروحي . وكانت حروب ارمينيوس أولى ظاهراتها . وثانيتها الانشقاق بين قوادها ، وثالثها المزاحمة على الوظيفة ، فايثار المصلحة الشخصية ، كما حدث بين بمبيوس وانطونينوس وبين سلا وماريوس

سوء ادارة فاروس

قلت ان كرينيليوس فاروس اخطأ باثارته عواطف الجرمانيين على سفالاته . ولم يكن اقل من ذلك خطأ في حملته على ارمينيوس ، بل كانت أفظع نتيجة وأشد ضرراً . فقد كان لرومية غربي الرين ثلاثة لجئونات ، هي زهرة الجنود الرومانية ، وعقدة فخر رومية . وكان معها ٨٠٠ خيال ، ومثل هذا العدد من البلاد الموالية رومية غربي الرين . وكل تلك القوات تحت قيادة فاروس . ولم يكن ارمينيوس يجهل قوة رومية ، فلم يشأ ان ينازلها في ميدان ، بل كان ينسحب امامها ، ويجرها وراءه الى حيث يصليها المعركة الفاصلة ، بل الى حيث ترد موارد العطب والهلاك

وكان مركز فاروس الحربي في وستفالي محفوفاً بالابهة ، فالتف حوله كل طامع في المجد ، طامح الى الرفعة ، من رؤساء العشائر . وقد سكر بخمرة تزلفهم اليه ، واعتمادهم في حل معضلاتهم عليه ، وامتداحهم فصاحته الخطابية :

ـ واعجاب المرء بنفسه بدء تدهوره ـ

فحمل فاروس بجيوشه على ارمينيوس ، فانسحب هذا امامه . فتعقبه ، فاوغل في مجاهل البلاد . وعلى غير العادة العسكرية الرومانية ،

اكثر فاروس من الرزم والمتاع . وصحبته جموع ثرثارة ، كأنهم ذاهبون الى مهرجان . فعبروا سهول وستفالي ، ودخلوا وعورها ، فساءت الطرقات ، وهطلت الامطار ، وفاضت الانهار ، وقصفت الرعود ، وطمت الاوحال ، وتوالت السيول ، فاضطروا في كثير من المواضع ان يقطعوا الاشجار ، ويمدوا جذوعها على الارض ، في وسط الاوحال ، ليمكنهم المرور . فكيف يحاربون في احوال كهذه ؟

وما زال ارمينيوس ينسحب امامهم ، وهم يتبعونه ، حتى بلغ بهم بلاداً جبلية ، بين مصدري نهري « اللب والامز » . وهي انجاد ، تتخللها اغوار وهوات ، وصخور شواهق ، واودية عميقة ، تجري فيها جداول متحدرة يتعذر عبورها . وقد حجبت السموات غيومها . هنالك وقف أرمينيوس . ولا تزال اسماء المواقع هنالك تدل على كارثة رومية . مثل « ضاس قنفلد » ميدان الفوز : « ضاي نوشتن » الخط المتين : « ضاي مورد كسل » قطيع المجزرة

هنالك أعيت المهندسين الحيل ، وضاق القواد ذرعاً ، في امر ذلك اللفيف المشوش المرتبك . فألقوا كثيراً من الرزم والاحمال تخفيفاً عنهم . وصار همّ كل واحد النجاة بنفسه لا غير . فتقطعت الاوصال الروحية في رجال الحملة . ودخلوا في غابة كثيفة ، مشتبكة الاغصان . وكان فاروس ينوي ان يتقدم ، ولكن الثوار امطروه وابلاً من النبال ، فعلموه ، في تلك الغابة درساً لم تكن لجئونات رومية تعرفه بعد . فأرغم على التوقف . ورأى افضل رجاله يسقطون حوله . كأن ارواحاً غير منظورة تحاربهم . وهجره الجرمانيون

المواثون ، الذين كان يعتمد على ارشادهم في وسط تلك المجاهل والادغال . وبكل جهد تمكن من اجتياز تلك الغابة الى بقعة فسيحة وراءها. فبات هنالك ذلك الجند التاعس ، مكمداً مذعوراً ، وعفاريت الجرمانيين تدمدم وتزمجر حولهم كالليوث ، ويرمونهم من الغابات بالسهام طول الليل ، حتى ازعجت كل نفس في الجيش ، وصغرت نفوس لم تكن تعرف الذل قبلاً

وفي الصباح استأنف الرومانيون سيرهم ، وتأهب ضباطهم لخوض المعركة الفاصلة ، معتمدين على استعداد جنودهم ، وحسن أسلحتهم ولكن أرمينيوس لم تخف عليه الحقيقة ، فكان أعقل من أن يشتبك معهم في قتال . فتركهم حتى صفوا صفوفهم ، وأوتروا قسيهم ، وحينئذ انسحب من أمامهم

هذا كان ديدنه حتى أسأم نفوسهم . وكان يناوشهم حيث يوافقه ذلك . وأخيراً وصلوا حراجاً عالية ، على مقربة من غابة « هرسينيا » بين قريتي « دريبورج وبيافيلد » فقطع أرمينيوس كثيراً من الاشجار . وطرحها على الطرقات ، ليزيدها صعوبة . فاضناهم التعب ، وساروا مشوشين . وحينئذ أعطى أرمينيوس رجاله الاشارة لخوض المعركة

فدوت أصوات الجرمانيين الجبابرة في تلك الظلمات المرعبة ، تردد أصداءها الاودية العميقة . وكانت صيحاتهم في تلك الحراج كزمجرة الاسود في عرينها . وهبطوا على المربعات الرومانية ، « كجلمود صخر حطه السيل من عل » . وأرسلوا عليها سحباً من الحراب والنبال ، تدمدم في الجو فوق رءوسهم ، ثم تصيب منهم

العيون والنحور . وحشروهم في الآجام والمستنقعات ، كما تحشر الجرذ في المصايد ، واخترقوا صفوفها ، ومزقوها شر ممزق

وكان أرمينيوس، وجماعة من واسعي الاشداق حوله. يصيحون صيحات تهلع لهــا القلوب ، فيثيرون حماسة أتباعهم ، ويوقظون في نفوسهم همجية الاجداد . وتغلغلوا بين الجنود ، ولا سيما الخيالةمنهم. فكانوا يرمون الخيول بحرابهم ، فتثور لالم الجراح ، وتخبط الارض بفرسانهم ، فتجندلهم عن ظهورها ، او تقف في وسط المغاص وهم على ظهورها هدفاً لسهام الجرمانيين

قام فاروس جيشه بالرجوع ، آملا أن يبلغ أول مخفر روماني للمبيت ، ولــكن هيهات ، فقد قات الانصار وعزت المطالب . فان الرجوع صعب كالتقدم ، وفقاً لقول الشاعر :

ويلاه ان نظرت وان هي أعرضت   وقع السهام ونزعهن أليم

فوقع فاروس في حيص بيص ، ولم يجد له ثمة من محيص . ولما تحول رجوعاً تعقبه الجرمانيون يوسعون الجيش رمياً في ظهورهم . فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . عندئذ هب الضباط للهزيمة ، تلاهم في ذلك الفرسان . فنكصت النور أمام أسود الغاب . وعثرت خيولهم فسقطت في الاوحال . فذبحهم الثوار ذبح الاغنام . وثبت مشاة الرومان يتساندون ، لا أملا في الفوز ، أو النجاة ، بل عمــلا بالآداب العسكرية دون أدنى أمل

وكانت الـكارثة التي حلت بالجيش الروماني في جرمانيــا أثقل كارثة حلت برومية في تاريخها . يدلك على ذلك وقع الخبر في رومية والذعر الذي شمل أهليها . فمزق أوغسطس قيصر ثيابه ، وظل مدة

ينطح الجدران برأسه ، ويصيح نادياً « يا فاروس رد لي جيشي »

أما فاروس ، فلما أثخن بالجراح ، أقدم على الانتحار ، مخافة أن يقع في أيدي أولئك العفاريت ، الذين لم يكونوا يفهمون معنى الاسر ، بل كانوا يذبحون كل من يقع في أيديهم . وكانوا يقدمون أسراهم ضحايا لآلهتهم ولا سيما « هرمان » اله الحرب

فهلك الجيش الروماني بخيوله وأعلامه وجنوده ومربعاته ، في الغابات والمغاوص والاودية والاخاديد ، ولم ينج منهم الا شرزمة صغيرة تنقل الى رومية أسوأ الاخبار في تاريخ الاستعمار . هذه هي نقطة التحول في تاريخ اوربا . وعنـدها تحولت أطماع الرومان في الجرمان،ووضعت أسس الاستقلال في وسط تلك الادغال المزعجة المرعبة

حكاية التقاء أرمينيوس بأخيه فلافيوس

وأرسلت رومية، الى جرمانيا ، جيشاً ثانياً ، بعد هلاك فاروس بسنتين ، لقمع عصيان أرمينيوس . وكان فلافيوس أخوه في هذه الحملة . فالتقى الجيشان ، الجيش الروماني والجيش الجرماني ، على نهر فاصر الشهير .كل على ضفة ، والنهر بينهما . فصاح بهم أرمينيوس طالباً أخاه . فلباه فلافيوس ، ووقف الاخوان يتخاطبان على ضفتي النهر . فتبادلا أولا السلام ، وسأل كل عن أحوال الآخر . ثم سـأل أرمينيوس أخاه كيف خسر عينه . فقص عليه قصتها . فسأله وبماذا كافأتك رومية على خسارتك هـذه ؟ فاراه نياشينه ، وأطنب في مدح رومية فهزأ به أخوه قائلا : انما تطوق عنقك بتلك السلاسل والاغلال الذهبية اقتل حريتك

هنا انتقل الاخوان من الحديث الحبي الى الخصومة والنزاع .. فتشاتما ، وجعل كل منهما يحرق الارم على أخيه طالباً اعدامه . ولكن حال النهر دون ذلك . ولم يعش أرمينيوس طويلا. اذ اغتاله أحد الجرمانيين ، فمات في السابعة والثلاثين من عمره . وله عند أمم التوتون اعتبار عظيم . لانه واضع حجر استقلالهم ومجدهم

الحوادث التالية

سنة ٤٣ م : فتح انجلترا في عهد كلوديوس قيصر
« ٥٨ ـ ٦٠ : حملات ناجحة على الفرتيين في حدود قوقاسيا
« ٦١ : اضطهاد نيرون المسيحيين اضطهاداً شديداً
« ٦٨ ـ ٧٠ : حروب الرومانيين الاهلية. تولية فسباسيانوس
« ٧٠ : خراب أورشليم وتشتت اليهود في كل الارض
« ٨٣ : غزوة دومتيانوس المنكودة الحظ في جرمانيا
« ٨٦ : بدء حروب الداسيين في بلاد العجم
« ٩٨ ـ ١١٧ : بلوغ الامبراطورية الرومانية أوسع حدودها في حكم تراجانوس
سنة ١٦٧ : تسع سنين حرباً بين رومية والجرمانيين
« ٢٢٦ : تجديد أزدشير الدولة الفارسية . وتدعى دولة الاكاسرة
سنة ٢٥٣ : غزو الجرمانيين والفرنج فرنسا واسبانيا وافريقية . والاناضول ومنهم سكان ولاية غلاطية في قلب الاناضول
سنة ٢٨٥ : قسمة ديوكليتيانوس الامبراطورية الرومانية الى قسمين

« ٣٦٣ : قتل يولياقوس المرتد في حرب الفرس

« : هجوم الهن (المنغاريين) على الغوث (الجرمانيين)

« ٤١٠ : هجوم الاريك على رومية وفتحها

« ٤٢٨ : كسر جنسريك ملك الفندال الرومانيين في افريقية

« ٤٤١ : هجوم الهونيين على قسطنطينية

السادسة

معركة شالون

سنة ٤٥١ م.

مجلى من مجالي الفلسفة

كنت في طوافي حول الارض ، توّاقاً للوقوف على الاصول . فكان خاطري يرتاح الى الاطلاع على نقط الاتصال ، بين الاشياء ، وصور المزج والتركيب . فأثّر في نفسي كثيراً مشهد اجتماع نهر اليغني بنهر مونتغهيلا في وسط مدينة بتسبرج بنسلفانيا ، فيتألف من اجتماعهما نهر أوهيو العظيم . وكذلك التقاء أوهيو ومزوري واوكلاهوما والاحمر ، بالمسيسبي . وكنت أعني بالنظر في اتصال عشائر الهنود الاميركيين بالاسبانيين . واختلاط الامم الاوربية في أميركا . وأثّر في نفسي ، في أثناء تجوالي في أوربا ، الوقوف على الاصول التي تفرعت منها أمم أميركا

وأذكر ، وفي النفس حنين ، أودية بنسلفانيا وأدغالها وشعابها ومنعرجاتها ، والتقاء الجداول التي منها يتألف نهر دلاور الجميل ، بين الخمائل والغيطان . وبكل الاحترام أذكر مقالات العلامة جيزو ، وزير لويس فيليب ، التي ألقاها على المجلس سنة ١٨٢٨ في «أصول التمدن الاوربي» . وكذلك كتاب « حل العقدة والافادة

في انتاج الاولاد حسب الارادة » للدكتور عريبلي . وكم خشعت لما قرأت كيف يتكون الجنين في أعماق الخفاء . وكذلك لما قرأت مكس ملر اللغوي ، في أصول اللغات البشرية . هنالك لامست نفسي سعادة المكتشفين ، ولست بالمكتشف . وأحببت أن أصل هذا الشعور السعيد بنفوس قرائي . فالفت أفكارهم في مقالة « معركة شالون » هذه الى « الاصول التي منها تألفت أمم غربي أوربا »

تنازع الورثين على جثة الميت

كان للامبراطورية الرومانية في حال احتضارها وارثان ، يتنازعان الارث الروماني العظيم ، وهما الهن والجرمان ، وموقف هذين العنصرين أمام رومية ، في ساعاتها الاخيرة ، يذكرنا بموقف أوربا تجاه الامبراطورية العثمانية في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين

كان الهونيون والجرمانيون في شرخ الصبا وغضارة الحياة ، لما كانت رومية تلفظ النفس الاخير ، فمن منهما يرثها ؟ . واذ هم كل منهما بأن يرث تصادما . ونقطة تصادمهما هي معركة شالون . فهي نقطة الفصل بين العائلة الهونية والعائلة الجرمانية ، في زعامة أوربا

من هم الهن أو الهونيون ؟

من الاغلاط التي كادت تحل محل الحقائق ، في عصرنا الحالي تسمية الالمان « بالهن » . وقع في ذلك بعض كتاب الانجليز ، في أثناء الحرب العالمية . وقلدهم أذنابهم في الشرق ، شأن الصغار في

مسرح هـذا الوجود . فصاروا يدعون الالمـان هناً أو هونين ، وما هم كذلك

جاء في تاريخ ماير صفحة ٣٠٥ : « تمتـاز سنة ٣٧٦ م . باعظم حادثة في الشرق » وذلك اندفاع الهن على أوربا . جاءوا من انجاد أواسط آسيا ، فجرفوا أمامهم القزيجوث والاسترجوث . أي الغوثيين الشرقيين والغربيين . وكانت عشائر الهن ذعراً للصينيين منذ العصور الخالية . ولـكن عشائر السنبيين المسلحة رجحت عليهم في ميـدان التنازع ، فجرفتهم أمامها وحلت محلهم ، في جبال التاي وفي الانجاد التي وراءها ، حيث أصول كبار أنهار سيبيريا ، أوبي وينيسي وايرتش ولينا . فعبرت عشائر الهن الحدود الفاصلة بين آسيا وأوربا سنة ٣٧٥ . وهبطت على العشائر الجرمانية عند ضفاف الدانوب ، ومزقت الجيوش الرومانية التي تصدت لها شر ممزق . وحلت ايالات بنونيـا واخواتها في جنوبي الدانوب . وسقطت أمامها المـدائن الرومانيـة والعشائر الجرمانية تباعاً . ومن عشائر الهن هـذه ، واخواتهـا التي جاءت سنة ٨٨٩ ، تألف الشعب الهنغاري ، « يعني هن جار » أو « هن غار » او هن جكار (بالجيم المصرية في الاول والكاف التركية في الثالث)

وهم من العنصر المنغولي ، أدنى نسباً الى قبائل الفن اوجريان ، او الفن اوغريان ، قاطني جبـال اورال بين روسـيا وسيبيريا . وقد جاءوا من جبال التاي في الصين في ثلاث حملات . ففي الاولى حلوا رحاب فنلاندا . وفي الثانية والثالثة هنغاريا وبلغاريا وجوارها وفصلوا بين أبناء العنصر الروماني في ايطاليا ورومانيا

يمتازون بجمال الصورة ، وذكاء العقل ، ولين العريكة ، وحب الاستقلال . وقد عاشرت منهم من لا أنساهم ، ولا أحيد عن احترامهم . وكانت عاصمتهم مدينة « بودا » على ضفة الدانوب اليمنى ، فاقترنت هذه بمدينة اخرى على ضفته اليسرى اسمها « بست » . فتألف من ذلك الاقتران مدينة مزدوجة الاسم هي « بودابست » حاضرة هنغاريا . ويسمون المجيار او المجر ، وعددهم في وادي الدانيوب ثلاثون مليوناً تقريباً

العشائر الجرمانية

ويجب أن اعيد النظر في العشائر الجرمانية التي ذكرتها في معارك ارمينيوس ، وقلت انها وجدت في اوربا قبل القرن الخامس ق . م . اعني قبل قدوم الهن الى أوربا بنحو تسعة قرون . فما هي مواطن هذه ؟

تتميز العشائر الجرمانية عن الهن والسلاف ، مع ان هذه العشائر كلها دعيت في عرف الرومانيين « برابرة » فعلينا أن نميز بين برابرة وبرابرة . لأن الكلمة اسم جنس ، يدخل تحتها أنواع كثيرة ، فهي ككلمة أعاجم بالعربية ، تطلق على كل ما ليس عربياً من أنواع البشر . وقد يكون الجامع بين هذه الانواع لغوياً لا اتنولوجياً

فمن العشائر الجرمانية كل شمالي اوربا وغربيها وهم الاسوجيون والنروجيون والدانمركيون والبلجيكيون والهولانديون والانجليز والالمان والفرنسيون والاسبانيون والبرتوغاليون و (أهالي شمالي

ايطاليا) اللومبارديون ، وامثال هؤلاء في اميركا واوستراليا ونيوزيلاندا وجنوبي افريقية ، ويتراوح عددهم بين ٤٥٠ و ٥٠٠ مليون نفس . وهم القابضون اليوم على أزمة الدنيا . وكانوا يدعون قديماً هكذا

النورمان : وهم الثلاثة الفروع الشمالية .

الغال أو الغول } وهم الفرنسيون اليوم
البورغنديون }

الفندال : وهم اللومبارديون

الفزيجوث : وهم أهالي اسبانيا وبرتوغال

التوتون : أهالي المانيا وهولاندا وانجلترا

وتمتاز العشائر الجرمانية بثلاث مزايا كبرى ، هي احترام النساء ، والحرية الشخصية ، والآداب الجنسية . وليعذرني القارىء اذا تجاوزت المسألة الكبرى في تاريخ التمدن وهي : هل شرفت النصرانية هذه القبائل اكثر مما شرفت هي النصرانية ؟ : فلا أتعرض للاجابة على هذه المسألة . ولا ريب في ان الحياة المسيحية تجلت في هذه الشعوب مدة ١٦٠٠ سنة على الاقل

قائدها اتلا

لم تتسرب الينا أوصاف قائدها بأقلام أتباعه ، فقط ، الذين له بينهم مقام المعبود ، بل أيضاً بأقلام خصومه وأعدائه ، الذين حسبوه غضب الله المسكوب على الناس . وهم الكتاب البزنطيون واللاتين والجوث وقدماء الجرمانيين والسكندنافيين ، ولا سيما في أشعار « بنابيلونجن » أقدم الشعراء الجرمانيين . جاء فيها ان اتلا

«هو اتيلا ذو الاثني عشر تاجاً وارث ارض الثلاثين ملكاً ، الذين أخضعهم حسامه » : وجاء في تلك الأشعار أن عاصمته هي « اتسلانبورج » وهي بودابست



اتيلا

وليس هو خشناً همجياً فظ الاخلاق والاوصاف . لا وألف الف لا . بل هو الجندي القانوني الذكي الفؤاد الذي تغلبت فيه

خلال الصداقة واللطف على محبة الغزو والفتوح . وهو ذلك الرصين الوقور في حياته الشخصية ، العادل المدقق في قراراته القضائية ، الحاذق في كل فنون القتال ، وآداب الطعن والنزال ، الذي أمن الخاضعين له وأنصفهم ، واحترم تقاليدهم القومية والميثولوجية ، وكان جنده يحسبونه الـهاً متجسداً . وينضوون تحت لوائه برغبة وحماسة دينيتين . هذا هو اتلا قائد الهونيين أو « الهن »

أسطورة سيفه

« السيف المصلت » هو اله السكيثيين ، وقد وقع ذلك الالـه بيد اتلا على الكيفية الآتية : سار أحد رعاة الهونيين ، في اثر عجل جريح . وكان يتتبع آثار الدم على الارض ، حتى وصل الى بقعة في العراء ، رأى فيها سيفاً نزل نصله في الارض ، كأنه ألقي من السماء . فانتزعه الرجل من الارض وأتى به الى اتلا . فتنبأ الراءون - الانبياء - انه سيفتح الارض بذلك الاله . وكان يلقب نفسه : « اتلا سليل نمرود العظيم الذي نشأ في « انجادي » بنعمة الله ملك الهن والغوثيين والدافيين والماديين ، ذعر العالمين » . وكان شعاره مرسوماً على مدالية ذهبية وهو رأس حية استرسل الشعر عليه وهو الشعار الذي نقشه انطيوخوس ايفانيس على ابواب انطاكية

بقي ان نفهم المراد بكلمة « انجادي » بالجيم المصرية ، ونعرف مغزاها التاريخي والرمزي ، فأقول . تعني كلمة انجادي « واحة النخل والعنب » . والواحة هي روضة في الصحراء أو « البرية » . والاستعارة هنا مستمدة من سفر الرؤيا ص ١٢ . وهو هذا :

وظهرت آية عظيمة في السماء امرأة متسربلة بالشمس والقمر

تحت رجليها . وعلى رأسها اكليل من اثني عشر كوكباً ، وهي حبلى تصرخ متمخضة ومتوجعة لتلد . وظهرت آية أخرى . . تنين عظيم أحمر ، له سبعة رءوس وعشرة قرون . . . والتنين وقف أمام المرأة . . . ليبتلع ولدها متى ولدت . فولدت ابناً ذكراً عتيداً أن يرعى جميع الامم بعصاً من حديد . . . والمرأة هربت الى البرية « انجادي » . هذه هي كلمة أنجادي . وتأويل هذه العبارات عندهم هكذا :

مولود المرأة : هو قسطنطين الكبير العتيد ان يغلب الوثنية

المرأة : الكنيسة . وهي مكللة باكليل من اثني عشر سبطاً واثني عشر رسولاً . وقد رييت كاسرائيل في « انجادي » أي البرية

فاتلا ملك انجادي ، أو البرية المختارة ملجأ للكنيسة ، على رأي بعضهم . فحكم اتلا على الاراضي شمالي الدانيوب والبحر الاسود وشرقي قوقاسيا . ثم عمّ حكمه قسما كبيراً من بلاد الجرمان ، وامتد جنوباً الى ثراقية . وأسس مدينة بودا سنة ٤٤٥ . واتخذها عاصمة له . ودعا نفسه « ابن المرأة » العتيد ان يرعى جميع الامم بعصاً من حديد . ولذلك لقب نفسه ملك « انجادي » أي ملك البرية ، او الصحراء

الاثنا عشر كوكبا

« وعلى رأس المرأة اكليلا من اثني عشر كوكباً » فما المراد بذلك ؟

قالوا ان موسسي رومية الاخوين روموس وروملوس ، على ضفة تيبر ، ظهرت لهما آية ١٢ نسراً ، اشارة الى ان مدة سيادة

رومية ١٢ قرناً . لذلك اتخذوا النسر شعاراً لرومية . ولما دنت المدة المقررة للرومانيين تضاءلت امبراطوريتهم ، وتقلص سلطانها ، ومالت شمسها الى المغيب . وقالوا ان روموس قتل أخاه رومولوس على أساس رومية ، او على اسوارها . ولماذا ؟ . لان الآلهة شرطت عليه ذلك لتمد اجل رومية الى ١٢٠٠ سنة . فاغتيال روموس اخاه هو الثمن المدفوع الآلهة ، لتنعم على رومية العظمى بالاكليل المؤلف من اثني عشر كوكباً أي اثني عشر قرناً . كذلك قتل اتلا اخاه « بليدا » لما اسس مدينة بودا على الدانيوب ، لانه سليل المرأة وملك انجادي ، المرموز اليه بقسطنطين الكبير ، وروموس مؤسس رومية . وليس الوثنيون وحدهم الذين اعتقدوا ذلك بل شاركهم فيه المسيحيون يومئذ . وهو رأي آخر قديم

داعي الحرب : اسطورة ثانية

كان لفلانتينيانوس اخت حسناء تدعى هنوريا . فارسلت هنوريا رسالة الى اتلا ، امبراطور الغرب ، تطلب يده ، او تعد له يدها ، قاصدة مشاركته في الامبراطورية . فاكتشف الرومانيون العلاقة الغرامية بين هنوريا وبين اتلا فسجنوها . فثار اتلا لقتال رومية ، انتصاراً لحبيبته ، وحفظاً لعهود الحب . ويقال ان عدد جيشه بلغ ٧٠٠ الف . ولا أظن ان ذلك القول صحيح

موقف فلسفي : اتمت رومية غرض وجودها ، واكملت الاثني عشر قرناً . فنقلت التمدن من اليونان الى اوربا ، ووسعت نطاقه ، فدنت وفاتها ، فمن يرثها ؟ . هل القبائل الجرمانية المسيحية او الهونية الوثنية ؟

هـذا هو موقع التنازع بين اتلا وبين الفزيجوث في اسبانيا والفرنك في فرنسا . فسار اتلا لقتالهم آملاً انه ، بعد سحقهم ، يعود الى رومية ، فيناقشها الحساب ، ويحرر حبيبته هنوريا من ظلمهم ، ويرث الامبراطورية الرومانية ، ويملأ الارض عدلا وسلاماً ، كما ملأها غليوم الثاني ! !

ميدان المعركة

في شمالي فرنسا سهل رحيب ، حول مدينة شالون ، كان يدعى قديماً سهل « كمبي كتالوني » ، ينساب المارن في جنباته ، وترقطه بعض القرى . في رحاب ذلك السهل ، قرب مزرعتي « شايب وكوبرلي » اراضٍ ما زالت تحمل آثار الفن العسكري . وعند الاهالي اسطورة قديمة ، وبحسبها يدعون تلك الارض «محلة اتلا» . ولا ريب في انها كانت ميدان المعركة الفاصلة بين اتلا والحلفاء المسيحيين ، الذين التفوا حول رومية وتولوز . على الجانب الواحد الهن ، وعلى الآخر الغوث والرومان . والى كل من الجانبين شيخ من شيوخ الفرنج المتنازعين . هذه صورة الميدان

جبهة القتال

جبهة اتلا : كان جناحه الايمن ممتداً للاتصال بحليفه الفرنجي ، وجناحه الايسر ممتداً جنوباً ، ليحول دون اتصال البرغنديين بالحلفاء في الميدان . وكان اتلا نفسه في القلب . وفي جناحيه الاوستروجوث او الاوسترش وهم النمسويون ، والجيباريون . وقد اتخذ اتلا خطة الهجوم

اما جبهة الحلفاء فهذا ترتيبها :

في القلب ملك الجوث (الالمـان) وفي الجنـاح الايسر الملك ثيودوريك ملك الفزيجوث وفي الجنـاح الايمن القائد الروماني اثيوس . وكان يحتل الانجاد تجاه جناح الهن الايسر . فرأى اتلا أهمية مركز اثيوس ، فبدأ المعركة بمهاجمته ، لانتزاعه منه . وقذف بزهرة جنوده في تلك الهجمات ، فصدها الرومانيون مراراً . وكان الملك ثيودوريك يوالي الهجوم في الجناح الايسر على الاوسترجوث في جناح اتلا الايمن . فوقع ثيودوريك قتيلا . فاستبسـل جنوده للاخذ بثأره . وداست سـنابك الخيل ملـكهم القتيل . وثأروا له باستئصالهم شأفة الاعداء . وداروا على قلب جيش الهن ، وكان ذلك القلب مشتبكا في القتال مع الالمان بمعركة طاحنة . فتراجع اتلا وصد رماته خيـالة الفزيجوث . وخيم الظلام ، ولا يزال جناحه الايسر امام اثيوس ، ثابتاً . ولـكن جناحه الايمن افناه الفزيجوث بدم ملكهم ثيودوريك . وكان قلبه متراجعاً نحو المحلة

واذ توقع هجوماً في الغـد ، يتعذر عليه صده ، جمع العربات والعنابر ، وجعلها سوراً ، امام رماة النبال . ولم يرد ان يحرز أحد الفخر بقتله ، فجمع كومة كبيرة في الوسط ، من السروج والعـدد الخشبية ، وجمع فوقها الغنائم والكنوز ، مع زوجته وأولاده ، وجلس هو على رأس الـكومة ، عازماً أن يضرم النار في الجميع متى انكسرت جيوشه . ولما رأى الحلفاء منه ذلك ، لم يضيقوا عليه الخناق لئلا ينفذ خطته . فتركوا لجيشه حرية الانسحاب . وهكذا انتهت المعركة بفشله

واذ كان اثيوس يخشى مطامع ثورسمند بن ثيودوريك ، اوعز .

اليه ان يسرع الى اسـبانيا . وبذلك نجي رومية من عدو يرهب بطشه ، وحليف تخشى مطامعه . وهما اتلا ملك « انجادي » وثورسمند ملك اسبانيا .

وهكذا انتهت معركة شالون ، ونجت اوربا من سلطة الهن . فانحصروا في هنغاريا ، التي ألفت مع اوستريا الامبراطورية النمسوية ، وتدعى اوستروهنغاريا . اي « الاوستروجوث » أو الجوث الشرقيين وهنغاريا

الحوادث التالية

سنة ٤٧٦ : سقطت رومية بيد اوداسر

« ٤٨٩ : اسس كلوفيس مملكة فرنسا

« ٤٥٥ _ ٥٨٢ : تغلب السكسون والانجل على انجلترا

« ٥٣٣ _ ٥٦٨ : تغلب يوستنيانوس ملك قسطنطينية على لمبارديا وشمال افريقية

سنة ٥٧٠ _ ٦٢٠ : الحروب بين هرقل وبين اكاسرة الفرس

« ٦٢٢ : الهجرة النبوية من مكة الى المدينة ، وهي بدء التاريخ الاسلامي

سنة ٦٢٢ _ ٦٥٠ : فتوحات العرب في بلاد العجم وما وراءها شمالا وشرقاً

سنة ٦٣٢ _ ٧٠٩ : امتلاك العرب سورية ومصر والمغرب ، من الروم

سنة ٧٠٩ _ ٧١٣ : عبور بوغاز جبل طارق ، ودخول الاسلام اوربا

السابعة

معركة تور

سنة ٧٣٢

صفة هذه المعركة فلسفياً

« هي المعركة الفاصلة بين الاسلام واوربا المسيحية على زعامة التمدن »

نشأت الاسلامية في مكة المكرمة بالحجاز . واتمت اخضاع العرب في حياة منشئها العظيم . ومن ثم شرعت في نشر سطوتها في العالم . وليس في تاريخ العالم اغرب من سرعة انتشار الاسلامية ، في سنين قلائل ، في سورية والعراق وكردستان وارمينيا وقوقاسيا والعجم والتتار ومصر وطرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش. ولم تقف عند هذا الحد ، بل تخطته الى ما هو ابعد امكاناً ، واعظم مغزى ، فهاجمت أوربا أولا من ناحية قسطنطينية . واذ امتنعت عليها دارت بها من ناحية اسبانيا ، ودخلتها عن طريق بوغاز جبل طارق . وساعدتها الاقدار على استعمار اسبانيا وسمتها الاندلس . ولست أرمي هنا الى شرح تاريخ الاسلامية في الاندلس ، ولا ايراد فتوحاتها المجيدة في بلاد الفندال والفزيجوث . بل أقول انها امتدت شمالا الى جبال بيرينيه ، وعبرتها الى فرنسا وذلك في ملك

عبد الرامز . وشنت الغارة على فرنسا بقيادة عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي سنة ٧٣٢ . وكان المذكور قائداً خبيراً بفنون القتال ، دمث الاخلاق ، محبوباً من جميع جنوده . فاجتاح غسقونيا وكل وادي غارون ، وقهر الكونت ايدو وهزمه ، وكانت على نهر غارون مذبحة هائلة ، نشرت الرعب في قلوب جميع سكان اوربا . ثم تقدم عبد الرحمن بجيشه اللجب الى وادي اللوار . ولم يقف في سبيله حاجز حتى وصل نواحي مدينة « تور » ، وهو يفتتح ويغنم ويحرق

الميدان

في رحاب شمبانيا الشاسعة ، بين بواتيه وتور ، المؤلفة من مروج خصبة ، وافرة المرعى ، غنية الحاصلات ، ينساب فيها جداول الشار والكروز والفيان والكلاين والاندر ، وكل هذه الجداول فروع نهر لوار العظيم . يرقط تلك الرحاب هضبات وأنشاز ، امتازت بنضارتها وجناتها ، تخترق بعض أقسامها حراج وغابات ، تفصل بين مروجها الخضراء . فهي جنات تجري من تحتها الانهار ، وتغرد على ميلاء أفنانها صادحات الاطيار ، ويهب في غاباتها النسيم عليلا ، وينساب لجين مائها ، على در حصبائها فراتاً سلسبيلا

وقد ازدانت تاريخ تلك الرحاب ، او تشوه ، بأخبار معارك عديدة ، شبت فيها في مختلف الازمان ، بين الغزاة الفاتحين والوطنيين المدافعين ، في مختلف الامم والاحوال . وأهم ما سطر ، في صفحات تاريخها ، أخبار المعركة الفاصلة ، بين شارل مارتل وبين

عبد الرحمن بن الغافقي . او بين العرب وبين الجرمانيين . بل بين الساميين وبين الاريانيين – بين آسيا واوربا – بين الشرق والغرب . هنالك كانت نقطة التحوّل والانقلاب في مجارٍ كثيرة ، هي الفتح العربي ، الامتداد الاسلامي ، الطموح الشرقي ، النهضة الاسيوية . ومن ثم نكصت هذه المجاري راجعة من جوار باريس الى ما وراء جبال بيرينيه ، ثم برحت اوربا الى العالم القديم . وساد اوربا التمدن المسيحي ، والامم الجرمانية

جيوش المعارك

نشر الاسلام رواقه على شمالي افريقية ، وغربي آسيا . وتعمق في هـذه الى ما وراء دجلة . فاكتسح بلاد الفرس والتتار ، وما فيهما من جبـال ووهاد ، وأغوار وأنجاد ، وبحيرات وأنهار ، ومدائن وأمصار ، وأمم وأسباط . فكان جيش عبد الرحمن خليطاً من كل تلك الامم من بدو وحضرٍ ، وعرب وبربر ، وفيـه من القوطيين والفندال من شعوب اسبانيا وبرتوغال . واختلف المؤرخون في عدده بين ٨٠ الفاً و ٧٠٠ . واثبت أحد مؤرخي الاجيـال الوسطى خسارة العرب ، في معركة تور ، ٣٥٠ الفاً . ولا سبيل لنا الى تحقيق ذلك ، والارجح ان فيه مبالغة كبيرة . على انا اذا فحصنا الامر بنور الحقائق تجلت لنا القواعد التي تؤيد أهمية المعركة ووفرة جنودها . قال أحد مؤرخي الإديار : « حلّ الاسلام اسبانيا بخيله ورجله ، وجاءها المسلمون بابنائهم وازواجهم ، وشكلوا الممالك ، ونشروا التمدن العربي والفنون الشرقية ، وحشدوا جيوشهم في تلك الاصقاع ، وجمعوا أسلحتهم وذخائرهم ، وعبروا بكل هـذه

الاشياء الى فرنسا ، فاكتظت بها الاقدام ، وغمرتها الجحافل والاعلام »

أما جيش شارل مارتل فكان فيه الجرمانيون، ولا سيما التوتون الذين سكنوا غربي نهر الرين ، ونبذوا عنهم عيشة البداوة الخشنة ، واعتنق بعضهم النصرانية ، ولكن اكثرهم ما زال الى ذلك الحين على الجاهلية. وكان زعماؤهم في نزاع مستديم، على التفوق . وأخيراً قبض كلوفيس على ازمة الامور سنة ٥٨٩ ، وهذا أساس الدولة الفرنسوية . ومن ذريته « شارل مارتل » بطل معركة تور . وهو دوك الفرنج الاوستراسيين ، وهم أشجع الجرمانيين . وكانت تحت لوائه جموع كثيرة من الغالبين والنورمنديين والسكسونيين والثورنجيين والغيرسانيين والبافاريين والايطاليين الاوستروغوثيين.

أوصاف المعركة

كتب العرب تاريخ هذه المعركة ، وترجم ذلك الى الاسبانية الدون « خوسيه انطونيو كوندو » في « تاريخ الممالك العربية في اسبانيا » . وقد طبع في مدريد سنة ١٨٢٠ وعنه أخذ المؤلف كريسي سنة ١٨٥١ . وترجمته هي : —

« فجمع الكونت جموعه ، وحارب وهو على غير يقين بالفوز . فساقهم عبد الرحمن أمامه ؟ وطاردهم جنوده بما في نفوسهم من الحماسة الناشئة عن انتصاراتهم الماضية ، وثقتهم التامة بالفوز . فضرب المسلمون أعداءهم ضربات حاطمة ، واجتازوا نهر غارون ، فدمروا البلاد ، وأخذوا الاسرى بدون عد ولا احصاء . وسارت جيوش عبد الرحمن في عرض البلاد الفرنسوية ، سير العواصف الكاسحة ،

تبقي ولا تذر . وتعادت الجيوش الاسلامية في الرخاء والغنائم . ودفع عبد الرحمن الكونت عن ضفاف النهر ، فارتد الى حصونه . فحاربه المسلمون ، وقهروه ، وانتزعوا منه حصونه ، وذبحوه بحد السيف ، وفازوا بخطف الارواح . فارتاعت قبائل الافرنج من هول الجيوش العربية ، وارتجفوا . وذهبوا الى ملكهم « كالدوس » وقصوا عليه الروع الذي ألقاه فرسان المسلمين في نفوسهم . وأنهم اجتاحوا بلاد نربون وتولوز وبوردو وأصبحوا أحراراً في البلاد ، وأخبروه بموت الكونت قائدهم . فطيب « كالدوس » قلوبهم ، ووعدهم بالنجدة

وامتطى كالدوس صهوة جواده سنة ١١٤ هـ ، وقاد جيشاً لا يحصى عدداً ، ونزلوا لقتال المسلمين . فأدركهم في نواحي مدينة تور العظيمة . ورأى عبد الرحمن ، وغيره من الزعماء ، انتقاض حبل النظام بين الجنود الاسلامية ، لاشتغالهم بالغنائم والاسلاب ، ولم يتجاسروا أن يغيظوهم بشيء . ووثق عبد الرحمن ببسالة جنوده ، وبحسن الحظ الذي رافقه . ولكن انحطاط الروح الحربية في الجيش هو على الدوام آفة الآفات . فهاجم عبد الرحمن وجيوشه مدينة تور ليغنموا الغنائم . وحاربوها ببسالة ، قبلما أدركتها النجدة . وكان صياح المجاهدين المسلمين كهياج الثورة لدى فرائسها . ولكن الله أهملهم لتوغلهم في الملاذ والاطماع الدنيوية . فالتقى الجيشان قرب نهر لوار ، وهما مختلفان في اللغة والدين والصفة المدنية . وبدأ عبد الرحمن وجنوده الحرب بقلوب ملؤها الغضب والكبر . وهجمت فرسان المسلمين على صفوف الفرنج . فثبت لهم هؤلاء

ثبات الابطال . وتكدست جثث القتلى الى الجانبين ، وظلوا في كر وفر الى غروب الشمس . وفصل ظلام الليل بين الجيشين

واستأنف المسلمون القتال عند ضوء الفجر . واخترق فرسانهم طريقاً الى قلب الجبهة النصرانية . ولكن قلوب كثيرين من المسلمين كانت مشغولة بالغنائم التي جمعوها في خيامهم وذاع في صفوفهم نداء كاذب ، ان الاعداء بغتوا المحلة ونهبوها . فبادر بعض فرسانهم للدفاع عنها ، وطرد الاعداء ، فظن اخوانهم انهم انهزموا من الميدان ، فاضطربت جيوش المسلمين . وفيما كان عبد الرحمن يهدئهم ، ويسكن روعهم ، ليردهم الى الميدان ، أحاط به محاربو الفرنج ، واخترقت صدره حرابهم ، فخر صريعاً . فهرب العرب أمام الاعداء . ومات منهم خلق كثير . فهذا الانكسار في جيوش المسلمين ، وموت قائدهم البطل الصالح عبد الرحمن ، حدث سنة ١١٥ هـ . ويقول المؤلف الانجليزي : « وندر ان نجد انصافاً كهذا في تاريخ الحروب القديمة ، وصراحة كالصراحة التي يصف العرب بها انكسارهم في تور »

ولكن مؤرخي النصارى يخالفونهم في بعض التفاصيل . ولا خلاف بين الفريقين في نتيجة المعركة . وهي انسحاب العرب من فرنسا الى ما وراء جبال بيرينيه . فانفرد شارل مارتل وابنه وحفيده شارلمان ، بالحكم في فرنسا . وهم ملوك الدولة المارونجية الشهيرة . فتأسست على أنقاض معركة تور الامبراطورية الرومانية الغربية ، وتوج قداسة البابا شارلمان أمبراطوراً على فرنسا وألمانيا وايطاليا سنة ٨٠٠م ، وبذلك بدأ التمدن المسيحي ، وقد مر عليه الى اليوم ١١٢٧ سنة

من غرائب الامور ان المعركة التي احتدم أوارها تحت سماء فرنسا ، قلما أعارها قدماء كتابهم حقها من الاعتبار ، لكن ما فاتهم لم يفت كتاب الانجليز والالمان والعرب . فوفوها حقها من الاهمية، وكشف بعضهم صفاتها الفلسفية والاجتماعية . واني أورد هنا أقوال بعضهم على مسئولية كتابها :

١ ـ قال جبون : المؤرخ الانجليزي الشهير : « أنها المعركة التي بها نجا آباؤنا البريطانيون ، وجيراننا الغاليون ، من أبناء العرب والاسلام »

وقال في مجلد ٢ ص ٧ : « لو لم يُصدّ ذلك الهجوم كانت العربية تدرّس اليوم في جامعات انجلترا وألمانيا »

٢ ـ قال شليغل : في تاريخ الفلسفة ص ٣٢١ . « ذلك النصر العظيم الذي أحرزه شارل مارتل وبه نجا التمدن المسيحي في غربي أوربا

٣ ـ ف . ل . برانك : في تاريخ جرمانيا مجلد أول ص ٥ : « ان حادثة القرن الثامن هي من أهم حوادث التاريخ كافة ، وبها وقفت الاسلامية في جانب والمسيحية في جانب . وكانت غاليا وايطاليا بين نارين : العرب من الجنوب ، والجرمانيون الوثنيون من الشمال الشرقي . وقد قيض الفوز للتمدن المسيحي بيد الفتى الجرماني الاصل « شارل مارتل » الذي قاد البلاد الى طريق النجاة »

٤ ـ قال ارنولد : في تاريخ الامبراطورية الرومانية مجلد ثان صحيفة ٣١٧ : « ان فوز شارل مارتل أعظم كثيراً من فوز ارمينيوس

وكانت له نتائج أرسخ في حياة الجنس البشري »

٥ ـ قال درابر : « قد وصل طرف الهلال العربي الواحد البوسفور ، والطرف الثاني اسبانيا ، وامتد الى فرنسا . وكان يهدد اوربا ببلوغ البدر التام . فيمحو التمدن اللاتيني العتيد من الوجود ويغمر اوربا »

٦ ـ وقال ادوارد كريسي « : كلما تذوقنا أهمية معركة تور زاد قدرنا أهميتها ، وبها نرى أنقاض الامبراطورية الرومانية تتنازعها قوتان ، هما القبائل الجرمانية ، والجيوش العربية . وهاتان القوتان تتنازعان تراث أعظم امبراطورية ظهرت في التاريخ . وأخيراً اشتبكت القوتان في تور . ووصف المؤرخ جبون الانجليزي المعركة وصف هوميروس معارك طروادة »

حوادث تالية

سنة ٧٦٨ ـ ٨١٤ : ملك شارلمان ، مجدد اوربا . وحارب الجرمانيين . ونصَّرهم . وأخضع بوهيميا وبنونيا . وسك النقود . واسس المدارس ، وأنشأ المكاتب ، وفصل في الخلافات المذهبية ، ووصل الرين بالدانوب ، وجمع بين الشرائع الرومانية والبدوية . وبحق دعي « شمس اوربا » مات سنة ٨١٤

سنة ٨١٤ : انقسمت امبراطورية شارلمان الى ثلاثة أقسام . هي فرنسا والمانيا وايطاليا

سنة ٨١٨ : جدد اوتو الامبراطورية الجرمانية ، بعد منازعات طويلة بين خلفاء شارلمان

سنة ٨٢٧ : ساد اغبرت ملك وسكس بقية أقسام انجلترا . دخل الشماليون فرنسا واسسوا دوقية نورمنديا

سنة ٨٧١ ـ ٩٠٠ : ملك ألفرد في انجلترا

سنة ١٠٤٠ : بدء ملك النورمنديين في سيسيليا وايطاليا

سنة ١٠١٧ : ملك كنيوت الدانمركي على انجلترا

سنة ١٠٣٥ : خلف وليم نورمنديا أباه على نورمنديا بفرنسا

الثامنة

معركة هستين

سنة ١٠٦٦

تأسيس المملكة الانجليزية

لست أود أن أرجع بالقارىء الى ما وراء العهد الروماني في انجلترا . فقد عرفنا ان يوليوس قيصر حلَّ في انجلترا سنة ٤٣ م ، في عهد كلوديوس قيصر الامبراطور الروماني . وفي أقل من أربعين سنة خضعت كل انجلترا وبعض اسكوتلاندا لرومية . وظل الرومانيون في انجلترا الى سنة ٤٤٠ . على أنه لما بلغت رومية طور الاحتضار وكانت تدافع عن كيانها وهي في آخر رمق من الحياة ، اضطرت لسحب جيشها من انجلترا ، تاركة البلاد تكافح لذاتها بذاتها

واذ باتت انجلترا ككرم بغير سياج تدفقت اليها سيول الحملات السكسونية والدانمركية . وأهم من نزلها ثلاث عشائر ، هي الغوث والانجليز والسكسون وتغلب عليها اسم الانجليز . فدعيت انجلند أي بلد الانجليز . وأسس السكسون في انجلترا سبع ممالك صغيرة ، انضمت بعدئذ وصارت مملكة واحدة تحت حكم اغبرت سنة ٨٠٢ الى ٨٣٩

هذا بدء الدولة الانجليزية. ثم غزاها الشماليون « النورمان » ،

فتسلط عليها ملكهم كنيوت مدة ٢٥ سنة . ثم عادت الى ادوارد المعترف سنة ١٠٤٢ . وهنا تبتدىء الحكاية

الوارثان

مرّ بك ان الشماليين أنشأوا في شمال غرب فرنسا دوقية نورمنديا . وكان حكام هذه الدوقية ، وحكام انجلترا ، من عائلة واحدة . ولم يكن لادوارد ملك انجلترا وارث ذكر . وكان له نسيبان ، هما هرلد امير سسكس (احد اقسام انجلترا) ووليم دوك نورمنديا

ومعركة هستين منتهى النزاع بين هذين الرجلين على العرش الانجليزي . فقد زار هرلد سنة ١٠٦٥ وليم نورمنديا . فغنم وليم الفرصة ، وقال له صراحة « يا ابن عمي ، لما كنا ، انا وادوارد ، نعيش معاً كاخوين وعدني انه اذا ملك على انجلترا كنت انا وريثه . فهل تساعدني على تحقيق هذه الامنية ؟ » . فعلم هرلد من طرف خفي ان خروجه من نورمنديا سالماً متوقف على قبوله بذلك . فقال نعم ، ولكن « مكره اخاك لا بطل »

وعرض وليم عليه ان يزوجه ابنته ادال ، ويرسل هرلد اخته الى نورمنديا فيزوجها وليم بأحد أشراف البلاط . فرضي هرلد بالامرين . ولكي يزيد وليم الامر وثوقاً سأله أن يقسم له ، فأقسم . ولم يكتف وليم بكل ذلك بل رغب الى هرلد ان يقسم له جهاراً بحضور رجال الدوقية . واتى بصندوق ، وضع فيه عظام القديسين ، ووضع كتاب الصلوات على غطاء الصندوق ، وهرلد لا يعلم ما في ذلك الصندوق . ثم سأل هرلد ان يركع ، فركع ، ووضع يده على

الكتاب فوق الصندوق ، واقسم على مسمع الجميع ، « ان يبرّ بوعده ، ويمكن وليم من الجلوس على عرش انجلترا » . ولما نهض هرلد من القسم تقدم وليم وفتح الصندوق وأرى هرلد ما في باطنه . فوجف هرلد خيفة لما رأى انه اقسم على عظام القديسين . ولكنه لم يبد ترددا في الامر . وامن الجميع على قسمه . وقفل بعد ذلك راجعاً الى انجلترا

تنصيب هرلد ملكا

وفي تلك السنة توفيت اخته ، التي وعد ان يرسلها الى نورمنديا ، ومات كذلك الملك ادوارد . فاجتمع « الويتنجموت » الانجليزي ــ مجلس الحكماء ــ وقرروا تنصيب هرلد ملكا ، غير معترفين لوليم نورمنديا بحق ، او مداخلة في سياسة بلادهم . وتوجوا هرلد ملكا على انجلترا في ٧ يناير سنة ١٠٦٦ . ووضع رئيس اساقفة كنتربري التاج على رأسه ، وسلمه الصولجان ، وجلس على العرش . ولما بلغ وليم ذلك حسبه خيانة . وارسل يذكر هرلد والانجليز بالوعد والقسم . فاجابه هرلد ان اخته توفيت ، وان الملك هو من حقوق الامة وليس من حقوق هرلد . وانه ولو تنازل هرلد عن الملك فالامة الانجليزية لا تقبل وليم نورمنديا بدلا منه . وعاد وليم فارسل رسولا ثانياً ، فسمع من هرلد نفس الجواب الاول . فاستأنف الامر لقداسة البابا ، فحكم له البابا بالحق في العرش الانجليزي ، وحرم من يخالف ذلك الحكم ، وارسل له علماً يصحبه حين يتقدم الى العرش

فشرع وليم يعد عدته للحرب ، فوقف عقله وقوته وكل كنوز ملكه ، وكل عون او نجدة تأتيه من حلفائه ، على صنع الاسلحة ، واعداد معــدات الحرب . وكان وليم واحد فرسان عصره وا كبر حكماء دهره،فأملى على جنوده انه قائدهم الى اجد نصر في التاريخ ، فانضوى تحت لوائه فرسان اوربا ، لانه كان فارساً مغواراً محبوباً من الفرسان . زد على ذلك رغبتهم في الحصول على رضا قداسة البابا . ورغب بعضهم في نيل المـكافأة ، وبعضهم في نيل الشهرة

واستعد هرلد للحرب ، وجمع جيشاً لجباً وبنى اسطولا كبيراً ، وأعدّ معداته لرد الطامع في عرشه . ولـكنه في هذه الاثناء غزا انجلترا هردرادا ملك دانمارك . فاضطر هرلد أن يذهب لصده بجيشه وأسطوله . فنجح ، ولـكن بجهود كبيرة ، وخسارة باهظة ، وغنم وليم نورمنديا فرصة غياب الملك هرلد وجيشه وأسطوله ، فنزل الى البر الانجليزي غير معارض

أوصاف حملة وليم

ركب وليم سفينة في مقدمة اسطوله اسمها « مورا » وكان على مقدمها تمثال نحاس ، يمثل ولداً بيده سهم ، يشير به الى انجلترا . ولما بلغ الشطوط الانجليزية شرع في تفريغ السفن وانزال الجيش . فـكان المهندسون والشيالون يفرغون العنابر ، وأنزلوا الدروع والسلاح والخيول والمؤن . ونزل الجيش هكذا :

أولا : رماة القسي . وقد تقلد كل منهم قوساً موتورة ، وعلى جانبه جعبة مملوءة سهاماً مبرية . وكانوا قد حلقوا لحاهم وجزوا شعورهم

كأنهم ذاهبون الى حفلة فرح . وكانوا يرتدون الثياب القصيرة استعداداً للقراع ، ومشوا بترتيب ونظام تتجلى فيهم الحماسة .

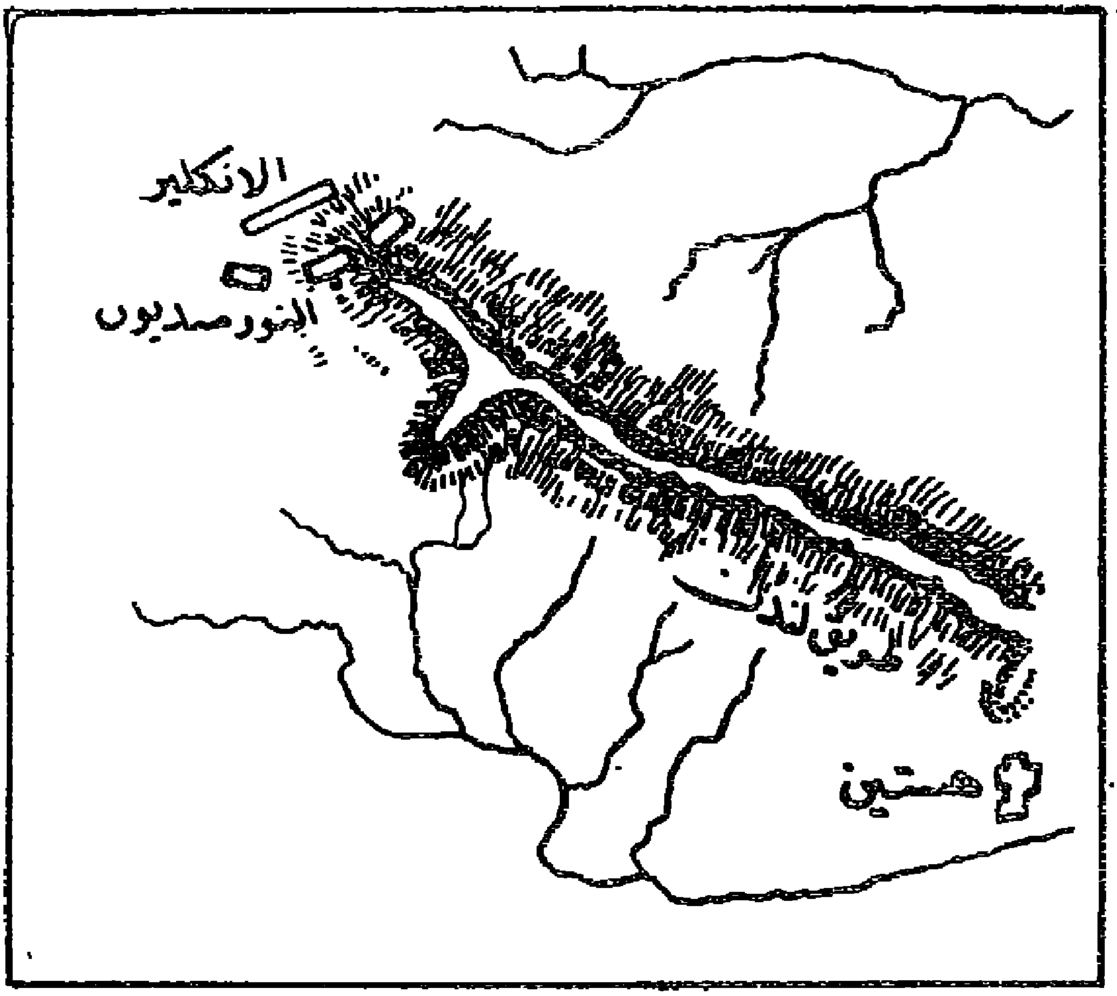
ثانياً : الفرسان بالدروع والدرق والخوذ اللامعة ، والسيوف الصقيلة ، والرماح الرذينية ، وقد اعتلوا صهوات الخيول كأنهم في ساحة الرهان .

ثالثاً : الصناع ولا سيا النجارين ، يحملون الآلات والاخشاب والمسامير ، وقد صحبوا أجزاء ثلاث قلاع خشبية ، قرنوها معاً ، فكان لهم في البر الانجليزي قلاع ومعاقل صناعية ، وضعوا فيها مهماتهم.

ولما صعد وليم الى البر الانجليزي عثر ، فسقط ولقي الارض بكلتا يديه فتشاءم رجاله ، أما هو فنزع تشاؤمهم بقوله : « يا الهي قد تناولت انجلترا منك بكلتا يديَّ وهأنا أردها لك »

فنصب المضارب والخيام ، وجال رجاله يصادرون المؤن والاشياء . وبلغت هرلد أخبار الروع الذي انتشر بين الفلاحين ، فأسرع الى الشرق لرد الغازي عن انجلترا . وكان جيش هرلد أقل عدداً من جيش وليم ، بسبب خسارته في محاربة هردرادا . فأشار عليه حكماؤه أن ينسحب الى لندن ، ويخلي البلاد أمام وليم ، كما عمل الروس مع نابوليون . وانه متى وصل وليم لندن ، يكون جيشه قد حلّ به التعب والمرض والجوع ، فحينئذ يصليه الانجليز المعركة الفاصلة . وهي مشورة غاية في السداد ، ولو عمل بها هرلد لكان فوزه مضموناً . ولكنه رفضها رفقاً بأهالي القرى الذين لم يطاوعه قلبه أن يرى بيوتهم تهدم ، وارزاقهم تتلف . فآثر أن يصلي ابن عمه وليم المعركة حالا ابقاء على الفلاحين

والح عليه أخواه ، جورث وليوفين ، ان ينسحب من الحرب ، لانه وعد وأقسم فلا يجوز له الحنث . وقالوا نحن لم نعد ولا أقسمنا فيجوز لنا ما لا يجوز لك . فنحارب . فلم يرد الملك أن يحارب الآخرون حروبه ، وهو مختبىء في زوايا البيوت . ورأى غضاضة في أن يريق الآخرون دماءهم لاجله



ميدان هستين

تمتد من قرية هستين الانجليزية سلسلة هضاب ، مسافة سبعة أميال في جهة الشمال الغربي، وعلى قنتها الطريق من البحر الى لندن، وتطل في نهايتها على الوهاد حول هستين . فجعل هرلد محلته على ذلك

النجد ، ليتحكم في العدو ، المكشوف لنظره واذا رام العدو أن يحيط به حالت دون مرامه الغابات وراء جيش هرلد . فكان لجيش هرلد مستند وراءه كأنه سور منيع ، مع ان ساقة وليم كانت مكشوفة ، واذا خسر المعركة فليس له ما يستند اليه . فليس أمامه الا الفوز أو الهلاك

وقبل الشروع في القتال ارسل وليم راهباً ينذر هرلد وجيشه بالخضوع لحكم البابا ، فرفض الانجليز ذلك ، وكرر وليم الانذار ، فكرر الانجليز الرفض . حينئذ تلا على مسامعهم الحرم الكبير ، فاوجف القوم خوفاً ورهبة

وصف المعركة

لقد وصف المعركة روبرت وايز شاعر الملك هنري الثاني ، فأبدع أذ وصف الميدان وصفاً طبيعياً . ثم وصف تجمع الابطال ، والعظماء حول وليم ، وانشاد أناشيد الحرب ، ومخاطبة الدوك رجاله ، فجأروا بمدحه والدعاء له . ووعدوه خيراً . ثم قال الكاتب :

« فهرع الجنود الى خيامهم ، وتقلدوا أسلحتهم ، وأملى الدوك عليهم الاوامر ، ثم لبس عدة حربه ، وامتطى صهوة جواده ، وهو من الخيول الاصايل ، أهداه اياه ملك اسبانيا . فكان منظر وليم على ظهر حصانه مما يروق ، كأنه للحرب قد خلق . وسلم العلم البابوي لأحد أبطاله . وقسم رجاله الى ثلاثة أقسام ، جناحين وقلب

« وسلم الجناح الايمن لمونغمري يعضده اوسيار ، وفيه جنود بولون وبوا . والجناح الايسر لالبان مركري وامري وفيه الريثيون والاشراف . وكان هو على القلب . وقد تأهب رجاله للحرب .

وبدأت المعركة الساعة ٩ صباحاً . واتخذ وليم خطة الهجوم ، والتزم هرلد خطة الدفاع . وكانت أسلحتهم السيوف والرماح وأدوات حديدية متنوعة . وقد رتب هرلد جيشه متصلا كالبنيان المرصوص ، وحذر جنوده كثيراً من التفرق والتشعب فيتغلغل العدو بينهم ، وأحاط جيشه بحاجز من أغصان الاشجار وتمنع الانجليز وراءه . وكان أخوا الملك الى جانبيه يذودان عنه ، وحولهم الاشراف والابطال .

فتقدم النورمنديون في ثلاثة صفوف ، اكبرها وأقواها في الوسط ، بقيادة وليم ، والى جانبه العلم المقدس . يجاوره أبطاله وأشرافه . فوقف لهم الانجليز ، وقوف الابطال للابطال ، ومدوا أيديهم بالتروس ، فكانت لهم سوراً ترتد عنه القواضب وهي متثلمة ، وضربت الطبول ، وعلا الضجيج ، ونفخت الابواق ، وزمجرت الابطال ، وشرعوا الرماح ، وجردوا السيوف ، وأطلقوا السهام .. وكان الصف الانجليزي يخطر كرقاص الساعة ذهاباً واياباً ، ورجاله لا يزالون ملتحمين ، كما أوصاهم الملك هرلد . وأنشد النورمنديون نشيد شارلمان ، واستأذن البطل تيـّيفير مولاه وليم بأن يبدأ الحرب. فاذن له . فبدأ بضربة سيف وطعنة رمح ، جندل بها اثنين من الانجليز . وسمعت قعقعة السـلاح ، وصهيل الخيول ، وصيحات الفرسان ، ووقع السيوف على التروس ، وانات الجرحى ، وعربدة الشجعان ، واشتد الطعن والضرب ، والتدافع والتزاحم . كل ذلك بالسلاح الابيض . ونجح الانجليز في صد النورمنديين . وطرحوهم في الخنادق عشرات ومئات ، أكداساً مكدسة. فبرز ادورد أخو الدوك

وليم وناشد النورمنديين أن يثبتوا ، ويتشددوا ويستأنفوا الكرة قائلا « اننا سنفوز باذن الله » وظلت الحرب سجالا بينهما الى الساعة ٣ مساء . وكان النورمنديون أولا يطلقون سهامهم افقية ، فيتلقاها الانجليز بالتروس ، فلا تضرهم . فجعلوا يطلقونها عمودياً على أمل أن تسقط على رءوس الانجليز ، ولكنها سقطت فوق رماتها ، فاضرت بهم ضرراً بليغاً ، اذ كانت تنزل عليهم كالامطار الغزيرة . ولكن اصاب الملك هرلد سهماً فقأ عينه ، وسبب له ألماً شديداً . فنزع السهم بيده . وربط عينه ، وظل على القتال

ولما عجز النورمنديون عن أخذ الانجليز مواجهة ، عمدوا الى الحيلة فتظاهروا بالاندحار ، وتراجعوا ، فجرى الانجليز في أثرهم . ولما ابعدوا عن مراكزهم ارتدوا عليهم ، واشتبك الجيشان بالقتال وطال الامر بينهما دون نتيجة ، اذ كان كل منهما كفؤاً لصاحبه . وكثرت القتلى في الجانبين ، وداست الخيل كثيرين منهم . وسقط تحت وليم حصانان ، وركب الثالث ، وما زال في الميدان . وضربه أحد الانجليز ضربة أصابت الخوذة ، فقدتها قدًّا ولكنها لم تشدخ الرأس . وأخيراً التحم الابطال ، ونكست الاعلام ، وخيم الظلام ، وتجندلت الفرسان ، وسقط الملك هرلد في الميدان . واسفرت المعركة عن فوز النورمنديين ليلا . ولا يعلم كم كان قتلى الانجليز . ولكن قتلى النورمنديين كانوا ١٥٠٠٠

وفي صباح اليوم التالي ، وهو يوم أحد ، جاءت سيدات بريطانيا ، تدفن موتاها ، فكانت النساء تفتش عن أزواجهن واخوتهن وأولادهن . وكان منظر الميدان مما يفتت الاكباد . واشتغل كهان

القرى كل النهار في تجنيز الموتى . وجاءت ام الملك هرلد تطلب جثة ولدها الملك . فرفض وليم طلبها قائلا ان هرلد محروم من البابا فلا يستحق نعمة الدفن ، بل يجب أن تأكل الكلاب لحمه . ولكنها توسلت اليه كثيراً فسمح أخيراً أن يجاب طلبها . فحملت جثة الملك ، ولم يمر عليه العام منذ جلس على العرش ، الى ولثام ودفنتها هناك

ودخل وليم لندن ظافراً ، وتسنم العرش ولبس التاج . ودعي وليم الظافر

الحوادث التالية

سنة ١٠٦٦ – ١٠٨٧ ثار الانجليز مراراً على وليم ، فكان يخمد ثورتهم كل مرة

سنة ١٠٩٦ : بدء الحملات الصليبية

سنة ١١١٢ : بدء النزاع بين امبراطور المانيا والبابا

سنة ١١٤٦ : الحملة الصليبية الثانية

سنة ١١٥٤ : ملك هنري الثاني على انجلترا

سنة ١١٧٠ : اخضاع ارلندا لانجلترا

سنة ١١٨٩ : ذهاب ريكاردو قلب الأسد . مع فيليب ملك فرنسا الى فلسطين

سنة ١٢٠٣ : انتزاع يوحنا الملك من ولدي اخيه وقتلهما في برج لندن

سنة ١٢١٥ : اصدار يوحنا البراءة العظمى ، وهي اساس الدستور الانجليزي

سنة ١٢٧٣ : تنصيب رودلف هبسبرج أمبراطوراً على المانيا

سنة ١٢٨٤ : فتح ويلس في حكم ادوارد الاول

سنة ١٣٤٦ : غزو أدوارد الثالث فرنسا ، معركة كريسي

سنة ١٤١٤ : ادعاء هنري الخامس، ملك انجلترا، التاج الفرنسوي

سنة ١٤١٥ : غزوه فرنسا وفوزه في معركة اجنكور

سنة ١٤١٧ : فتح نورمنديا

سنة ١٤٢٠ : عهدة تروليه بين فرنسا وانجلترا

سنة ١٤٢١ : فوز هنري على الفرنسيين ، الذين رفضوا تلك العهدة

سنة ١٤٢٨ : حصر الانجليز مدينة أورليان الفرنسية . وظهور جان دارك

جان دارك

في سنة ١٤٢٩

« فشخصت أنظار اوربا جمعاء الى المشهد ليروا أين يقف الفرنسيون ليصونوا مملكتهم » (جبون)

مركز فرنسا في التمدن

لما اجتمع قواد اليونان ، بعد معركة سلاميس ، ليروا لمن كان القدح المعلى في الفوز ، كان كل منهم يدعي انه الاول والثاني تمستوكليس . فدلنا ذلك على ان تمستوكليس هو صاحب القدح المعلى. هكذا في تمدن اوربا تدعي كل من ايطاليا وانجلترا والمانيا واسبانيا انها الاولى في التمدن والثانية فرنسا . فدلنا ذلك على ان الاولى هي فرنسا . وليس من يجهل تأثير فرنسا في الفنون الجميلة والعواطف الانسانية ، وآداب اللغة ، وغيرها من مقومات الحياة الروحية . ويمكننا القول، ولا نخشى في ذاك لومة لائم — والقائل هنا انجليزي — ان الحاجز الوحيد الذي حال دون استعباد اوربا لانجلترا هو فرنسا. فقد ندر ان يتجلى روح الاستقلال القومي كما تجلى في اورليان سنة ١٤٢٩ ، بعد ان وطىء الاجنبي أراضي فرنسا ، وقهر جنودها ، وفتح مدائنها ، وتسنم عروشها ، ومنيت بخيانة كثيرين من أبنائها ، الذين انضموا الى الاعداء نكاية بالملك الذي اغتال أميرهم

موقف فرنسا

بلغ التراخي والفتور من القوم أعظم مبلغ . فلم يكن يرى في فرنسا إلا الفاقة والتخاذل ، فكان عمالها يخزنون اللصوص ، اذ لا يجدون عندهم ما يسرقونه . وكان يتنازع مخازن الاقوات فريقان من الناهبين ، هم الانجليز الغزاة ، وعصابات اللصوص . فسادت انجلترا شمالي فرنسا كله سنة ١٤٢٨ . وتهيأت للاجهاز على الباقي

حصار أورليان

كان موقع هذه المدينة على ضفة لوار الشمالية ، يصلها بالجنوب جسر ممتد على النهر ، وعليه برجان ، وكان الفرنسيون يواصلون اخوانهم المحصورين بواسطة الجسر . فرأى القائد الانجليزي سالسبري أن امتلاك الجسر خطوة أولى لفتح المدينة . فوجه همه الى هذه النقطة ، وهاجم البرجين في ١٣ اكتوبر ، فقطع الفرنسيون قسماً من الجسر ، وبذلك فصلوا المدينة . ولكن حلول الانجليز هنالك حكمهم في المدينة. يقول جبون الانجليزي : ان المدافع استعملت في حصار أورليان لاول مرة في التاريخ . وكانت تستعمل هنالك لاهلاك الناس ، وأول من استعملها لدك الاسوار هم الاتراك في حصار القسطنطينية

وكان الانجليز يتوقعون أن الجوع يرغم الفرنسيين على التسليم ، اذ حال السور المنيع ، والنهر المحيط بالمدينة ، دون فتحها عنوة . وقتل القائد سالسبري بشظية قنبلة ، فخلفه في القيادة اللورد صوفوك . وضرب أسوار أورليان بالمدافع . واستأنف الضرب في ربيع سنة ١٤٢٩ وشدد في حصارها ، فجعلت تشعر بالحاجة . وأحرز

السر جون فستوك الانجليزي فوزاً عظيماً على الفرنسيين ، في دوفاري قرب أورليان حيث تغلب ١٦٠٠ انجليزي على ٤٠٠٠ فرنسي . وبذلك حصلوا على كثير من الاقوات ، كانوا غاية في الاحتياج اليها . وكان أهالي أورليان على وشك التسليم ، وعرضوا شروطهم على دوك برغندي ، وسئم ولي عهد فرنسا الحرب ، ومال الى التنازل عن العرش . فصدته عن ذلك الملكة ووصيفتها . وقصرت الحكمة البشرية عن ادراك طريقة لانقاذ أورليان وفرنسا من ذلك المأزق

من هو المنقذ ؟

كان في قرية دومرمي ، قرب اللورين ، رجل اسمه جان دارك . وقد ربى عائلته على التقوى والفضيلة . وكانت كبرى بناته جانيت ، ويدعوها الفرنسيون « جان » والانجليز « جوان » ، وهي في الثامنة عشرة من عمرها ، مغرمة بقراءة سير القديسين والنساك . فأيقظ ذلك في قلبها احلاماً ، دفعتها الى عيشة العزلة والانفراد . وكانت ترعى غنيمات ابيها . وقد اشتهرت في محيطها بطهارة حياتها وعطفها على المرضى والفقراء . وكانت منطقتها بعيدة عن ويلات الحرب ، ولكن اخبارها كانت تروع الناس . ومرّة دهم القرية بعض الغزاة ، فلجأت مع والديها الى « نوشاتل » . وكانت اخبار الحرب ، وآلام الامة من جرائها تنقش على صفحات قلبها آي الوطنية . فأضحى تحرير فرنسا شغلها الشاغل ليلاً ونهاراً . أضف الى ذلك رؤية الصور التي تبين انتصار الله للمظلومين بطرق خارقة . فتشدد ايمانها ، واصعدت صلوات حارة ، وأخيراً وثقت في نفسها



جان دارك

أن الله دعاها لذلك العمل ، وأمدّها بقوة خارقة . وقالت بعدئذ ان الرؤى السماوية بدأت تتوالى عليها منذ بلغت الثالثة عشرة من العمر . وكانت قد صامت في اليوم السابق ، وسمعت صوت الله يخاطبها ، وهي ذاهبة الى الكنيسة ، ورأت مع الصوت برقاً لامعاً . ثم ظهر لها ماري ميخائيل ، وسيدتنا مريم ، والسيدة كاترين . وكلهم مكللون بالمجد والجلال . وسمعت جان صوتهم اللطيف المؤنس ، فلم تلمس اطرافهم . وبكت لانهم لم يأخذوها معهم الى الفردوس . وكانت الرؤيا تتكرر مع رنين الاجراس . وقالت ان الاشخاص السماوية قالوا لها انها ستنقذ فرنسا . ولذلك هبّت لعملها المجيد

شروع جان دارك في العمل

فأخبرت والديها بعزمها ، ولم يثنها عنه غضبهم ولا حزنهم . فذهبت الى ڤوكولير حيث قابلت القومندان دي بودريكور ، والتمست منه ان يقدمها للملك . فظنها القومندان مجنونة . ولكنها أخيراً فازت باقناعه ، وربحت قلوب اهل البلدة ، فوثقوا بها ، وأيقنوا ان الله اختارها لانقاذ فرنسا . فذاعت شهرتها في الجوار ، وأرسلها القومندان صحبة خفير الى شينون ، حيث قابلت الملك وولي عهده . وكان ولي العهد في وسط جمهور ، لا يمتاز عنهم بملابسه ، فعرفته فراسةً وجثت أمامه ، وقصت عليه رؤياها السماوية ، وأنبأته انه سوف يتوّج في كنيسة ريمس . وكانت تتكلم بجد وثقة تامين . فانتعشت بذلك عواطف الاسرة المالكة . ورأوا ان الله سلط عليهم الانجليز بسبب شرورهم ، وكانت فرنسا يومئذ مملوءة بروح التديّن ، وكان عندهم مع الخرافات والتعصب ايمان وطيد . ومن شأن الايمان

صنع المعجزات ، فحدث في الاكليروس انتباه روحي، وجالوا في كل فرنسا يحثون الناس على طلب الخلاص . وصدّق الناس كل ما روي لهم عن جان دارك . واعتقد الانجليز ان روحاً كلمها ، ولكنهم حسبوه روحاً شريراً . ولكن شارل ملك فرنسا صدقها . وتألب الناس حولها ، واثقين بالرؤيا السماوية التي ادعتها . وقاموا لطرد الانجليز من فرنسا

تجند جان دارك

فجاءت جان الى بلوا بملابس الجندية ، وامتطت حصاناً أدهم ، وتقلدت رمحاً ، وتعلمت كيف تهزه . ولكنها لم تلبس الخوذة ، بل كان شعرها الجميل مسترسلا على كتفيها ، منوطاً بشريط أبيض . فكانت متميزة بين الجنود . وتقلدت سيفاً ، وبلطة حرب كغيرها من الجنود . ورفعت فوقها علماً كتبت عليه « يسوع – مريم » . وعلى هذه الكيفية قادت جيش فرنسا . فاحترمها الجنود ، وقدسوها وأطاعوها . ولم تتدخل في حركات الجنود الفنية ، بل تركت ذلك للقائد الكومندان « دونوا » . واقتصرت هي على اغراء الجنود بأن الله معهم اذا هم اقتحموا صفوف الانجليز . ونبذت من الجيش كل من أرغم على التجند . ورافقها الكهنة يقبلون اعتراف الجنود ، ويقدسون حيث حلوا . ولم تسمع في الجيش كلمة تردد . وانقاد لها الابطال كالاطفال وذهبوا الى الحرب بروح جديدة

فسارت من بلوا في ٢٥ ابريل الى أورليان ، يصحبها دونوا لاهير وغيره من القواد . فوصلت المدينة في ٢٨ ابريل . وفي اليوم التالي ركبت حصانها ، وطافت باحياء المدينة ، بسلاحها الكامل ،

والى جانبها القائد دونوا وكبار الفرسان . واحتشد الناس حولها ، وتهافتوا على لمس طرف ثوبها ، او مس علمها المبارك . وحسبوها ملاكاً هبط من السماء في صورة انسان ورفضت أن يعملوا لها وليمة ، وانقطعت للصلاة ، وسمع بها الانجليز فحسبوها ساحرة . وأرسلت نداء للانجليز تقول لهم ان الله يأمرهم أن يردوا مفاتيح فرنسا ، ويعودوا الى جزيرتهم ، قبل أن يصب غضبه عليهم من السماء . وكررت هذا الانذار عليهم وهي في المدينة المحصورة . فرد عليها القائد الانجليزي السر وليم كلار كسدايل قائلا : « اذهبي وارعي بقرات أبيك » وعيرها بعبارات أجرت دموعها على وجنتيها . ومع ان القواد الانجليز هزأوا بها ، فقد أرعب كلامها قلوبهم . حتى انه لما جاءت الاقوات الى اورليان لم يتحرك أحد منهم لردها أو لسلبها ، كأنها سحرتهم

المعركة

ولما وصلت الاقوات ، الى مدينة أورليان ، ركب القائد دونوا وكانت جان في البيت متعبة . وهجم دونوا على الانجليز في سنتلوب فصدوه . فهبت جان بصوت سماوي ، وركبت حصانها ، واذ نسيت علمها المبارك عادت تطلبه ، الا أنها لم تنزل عن ظهر حصانها ، بل تناولته من النافذة وهي راكبة . فأخذته بيدها وسارت الى الميدان ورأت بعض الجرحى قرب مدخل المدينة فقالت « انني لا أقدر أن أرى الدم الفرنسوي الا ويقف شعر رأسي » . ودفعت حصانها الى خارج المدينة ، ورأت قومها مدحورين ، مرتدين نحو أورليان بدون نظام . ولكنهم حالما رأوا القديسة ، انقلبوا راجعين الى

الميدان . فراع الانجليز منظرها « الجهنمي » ، على رأيهم . وانقض الفرنسيون على الحصون ، وقتلوا حاميتها الخارجية . ولما انتهت المعركة عادت اليها كل صفاتها الانثوية ، فبكت لما رأت الدماء والقتلى وسمعت أنين الجرحى والمحتضرين . وزادها بكاء انهم ماتوا بدون اعتراف

وكان اليوم التالي يوم خميس الصعود ، فقضته في الصلاة. وفي اليوم الثالث عبر الفرنسيون النهر ، وضربوا الانجليز في جنوبيه . فجرحت جان في كعبها . ولكن الفرنسيين فازوا باسترداد سنت جان وأوغسطين . فلم يبق بيد الانجليز الا الحصنان ، وهما مفتاح أورليان . وكانت النجدة قادمة للانجليز ، فرأى قواد فرنسا من الحزم اقتحام الحصنين قبلما تصل النجدة ، فيمتنعان عليهم . وكان كلاركسدايل قد وضع على أسوار البرجين خمسمائة من رماة النبال هم زهرة الجيش الانجليزي

وفي صباح ٧ مايو حضر القداس الوف من الفرنسيين ، بناء على رغبة جان دارك ، واعترفوا بخطاياهم ، ثم عبروا النهر ، وجان بصحبتهم فساء الانجليز منظرها ، وسدد أحدهم نحوها سهماً ، ورماها به ، فأصاب كتفها ، وهجم الانجليز عليها ليأسروها ، فسبقهم الفرنسيون وحملوها من الميدان ، وجراحها تقطر دماً ، وذهبوا بها الى المؤخرة وطرحوها على العشب . فنزعت السهم بيدها واستدعت كاهناً ، وعكفت على الصلاة . ففاز الفرنسيون بانتزاع الحصن من الانجليز ، بعد ما كانوا قد ارتدوا عنه . فردتهم جان بما بثته في نفوسهم من الحماسة . وقالت للجند انه حالما يمس علمها الحصن يدخلونه . وحدث

ان جندياً كان في الخندق ، وعلم جان بيده فهوى بالعلم على السور فلامسه، فاندفع الفرنسيون كأسد الشرى ، وتسلقوا الاسوار العالية ، ودخلوا الحصن ، وكان أهالي اورليان قد دخلوه من الجهة الثانية ، فقتلوا من الحامية ٣٠٠ وأسروا الباقين وهم ٢٠٠

وللحال رمموا ما تهدّم من الجسر ، وعادت جان الى المدينة ظافرة . واجتمع القوم في الكنائس لتقديم الشكر لله ، واحتفلوا ليلاً باضاءة المصابيح والمشاعل . وشرع الانجليز في اليوم التالي يحرقون ذخائرهم وينسحبون من الحصون . وبذلك تم القسم الاول من رؤيا جان دارك وهو رفع الحصار عن اورليان

وسارت الى ريمس ، وحضرت تتويج الملك ، وهي راكعة الى جانبه . وقالت ان عملها قد كمل . وسكبت أمام الله دموع الشكر والفرح قائلة « الآن تطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام » . وصارت تقول ان أجلها قد انتهى

ولكن الملك والقواد حرصوا عليها ، لان وجودها كان يضرم في نفوس الجنود نيران الحماسة . فرافقت الجيش في استرداد سواسون ولاون وشمبانيا وبوفيه وغيرها . ولكنها في الهجوم على باريس سنة ١٨٢٩ انسحب الفرنسيون ، وجرحت جان . وفي الربيع التالي أسرها البرغنديون في شمبانيا في ٢٤ مايو . وسجنوها في أراس ، ثم في كروتري ، على شطوط هولاندا . وفي نوفمبر سنة ١٤٣٠ اشتراها منهم الانجليز بمبالغ طائلة . وأخذوها الى روان ، وحاكموها وحكموا بانها ساحرة ، والسحر عندهم جناية يومئذ ، فاحرقوها حية في ٣١ مايو سنة ١٤٣٩

حوادث تاليه

سنة ١٤٥٢ : انسحب الانجليز نهائياً من فرنسا

سنة ١٤٥٣ : سقطت القسطنطينية بيد محمد الثاني سلطان الاتراك.

سنة ١٤٥٥ : بدأت حرب الوردتين بين اسرتي لانكستر ويورك

سنة ١٤٧٩ : اتحد المسيحيون في اسبانيا تحت ادارة الملك فردنند

سنة ١٤٩٢ : سقطت غرناطة آخر حصون الاسلام في اسبانيا. وفي هذه السنة كشف كولمبوس العالم الجديد - اميركا -

سنة ١٤٩٤ : غزا شارل الثامن ايطاليا

سنة ١٤٩٧ : سار فاسكو دي غاما الى الشرق بطريق رأس الرجاء الصالح

سنة ١٥٠٣ : انتزعت اسبانيا مدينة نابلي من فرنسا

سنة ١٥١٦ : توفي فردنند ملك اسبانيا. وخلفه شارل الخامس.

سنة ١٥١٧ : تنازع لوثر وتنزل (راهبان كاثوليكيان) على الغفرانات وعن ذلك نشأ الاصلاح الديني في اوربا

سنة ١٥١٩ : صار شارل ملك إسبانيا امبراطوراً على المانيا

سنة ١٥٢٠ : فتح القائد كورتيز مكسيكو

سنة ١٥٢٥ : اسر ملك بافاريا فرنسيس الاول ملك فرنسا

سنة ١٥٢٩ : صلح سمالكالد بين البروتستانت والكاثوليك

سنة ١٥٣٣ : خروج هنري الثامن ملك انجلترا على البابوية.

سنة ١٥٥٩ : تنازل شارل الخامس لابنه فيليب الثاني

سنة ١٥٥٧ : جلست اليصابات ملكة على انجلترا . وكسر الاسبان في سان كنتان

سنة ١٥٧١ : كسر الاسطول العثماني أمام الحلفاء في ليبنتو

سنة ١٥٧٢ : مذبحة ماري برثلماوس في فرنسا

سنة ١٥٧٩ : ثورة هولندا على اسبانيا

سنة ١٥٨٠ : فوز فيليب الثاني على برتوغال

العاشرة

كسر الاسطول الاسباني

سنة ١٥٨٨

امتاز ملك اليصابات ستوارت بأمرين : تأليف شركة الهند ، وكسر الاسطول الاسباني . نشأ عن الاول اكبر مستعمرة في تاريخ الدنيا . وعن الثاني نجاة انجلترا والاصلاح من الهلاك

أسباب العداء بين الدولتين

الدول كالافراد ، تتنازع وتتخاصم ، وكالافراد تصرفاتها ظاهرات أسباب كامنة طي الصدور . ومن أسباب العداء بين انجلترا واسبانيا في القرن السادس عشر ما يأتي :

١ ــ تشجيع الانجليز رعايا اسبانيا على الثورة ، ومساعدتهم بالمال والرجال ، كما في هولاندا مثلاً

٢ ــ انفصال انجلترا عن كنيسة البابا ، وفيليب أعظم أنصار تلك الكنيسة

٣ ــ سطو البوارج الانجليزية على الثغور الاسبانية في المستعمرات كما في شيلي مثلاً

٤ ــ المزاحمة الاقتصادية ، والاستعمارية بين الدولتين

٥ ــ هزء الانجليز بالملك فيليب جهاراً

٦ ــ اعدامهم حنة الملكة الكاثوليكية ، وكانت في لندن بضيافة ابنة عمها اليصابات . وهي مداعية بالعرش الانجليزي لانها ابنة جيمس . وقد أوصت لفيليب بالعرش الانجليزي بعدها

فبناءً على ما ذكر من الاسباب حملت اسبانيا على انجلترا حملة داريوس على اليونان في أولى المعارك

عظمة مملكة فيليب


فيليب الثاني ملك اسبانيا

كان لفيليب امبراطورية لا يعرف التاريخ لها نظيراً . ففيها : اسبانيا ، برتوغال ، بلجيكا، هولاندا، نابلي، سيسيليا، لمبارديا ، تونس ، أوران، الراس الاخضر ، جزر لعاز ، ملقا ، فيلبين ، وكل اميركا الجنوبية ، ومكسيكو وهندوراس وجواتيمالا ونيكاراجوا وسان سلفادور وكوبا وفلوريدا وتكساس ونيومكسيكو وكلورادو واريزونا وكاليفورنيا وغير ذلك من الاقسام

وكانت الاولى في الاتساع والغنى والقوة الحربية والبحرية . وكان البابا صديق فيليب وحليفه وقد اشتركا سنة ١٥٧١ في كسر الاسطول التركي في ليبنتو

كان برنس بارما اشجع ابطال عصره ، واوحد قواد زمانه ، وأوفرهم خبرة في الحرب وتدبير المعارك . فعينه الامبراطور قائداً لهذه الحملة . وكان تحت رايته نخبة القواد والابطال . واتاه خمسة آلاف من شمالي ايطاليا ، وأربعة آلاف من نابلي ، وثلاثة آلاف من النمسا . فقطع الغابات لبناء أساطيل حربية ، وسفن نقالة للجنود والمهمات . وكان الاستعداد يجري سراً لم يعرف به أحد تحت الشمس الا البابا ودوق جيز . وفي ختام السنة برزت الحملة بأعظم المظاهر . وفيها ١٣٠ بارجة ضخمة ، فيها ٨٠٠٠ بحار و٢٠٠٠٠ جندي بري و٦٤ سفينة نقالة ، ومئات من السفن النهرية ، وعدد من ذوات الأبراج ، في كل منها ٣٠٠ عبد للتجذيف ، وكنيسة وقاعة للهو وغرف وقاعات عديدة . وكلها مجهزة بالاعلام والابواق والاسلحة والمدافع

وقد صحبوا كل ما حسبوه لازماً ، كالعربات والبغال والمعاول والبراميل والجلود وآلات قطع الخشب ، وآلات البناء والاطعمة والمشروبات . فكان معهم ١٧٤ الف زجاجة خمر ، و٢٠٠٠ قنطار من لحوم الخنازير ، و١٠٠٠ قنطار من الجبن ، و١٢٠٠٠٠ زجاجة ماء . عدا السمك المقدد والفاصوليا والزيت والخل والشموع والمصابيح والشراع والخيش والرصاص لسد ما قد تحدثه المدافع من الثغر في جوانب السفن . وكان مجموع رجال الحملة ٣٤٠٠٠ و ٤٠٠٠ خيال . وقد سموه الاسطول الذي لا يدحر

وكان فيها من مشاهير الاميرالية ، ديجو وبيمنجتا وفرنسيسكو

دي توليدو ودون الونسلي ودي لوسون ودون اوغسطا مكسيكو .
وفي أثناء اعداده اسرع قائده العام الى بلجيكا ، فاعد هنالك أيضاً ، اسطولا ضخماً من السفن البحرية والنهرية ، واستخدم ألوفاً من العمال يشتغلون بالمطارق والآلات ، ليلا ونهاراً ، في غنت وانتورب وبروج . واعد ٢٠ الف برميل فارغة لمد جسور نقالة على الجداول والانهار

وانضم الى هذه الحملة كثيرون من اللوردات والاشراف ، كدوك بسترانيا ابن غوميز بورغو ، أحد أبناء الارشيدوق فردنند ، ودوك فسباسيان غونزاغا من أسرة مانتوا ، وجيوفاني مديسي ، وارميدو سافوس . وكثيرون من المتدينين طمعاً في رضا البابا ، وكثيرون من الطامعين في الشهرة . وكل من جمعته الاسباب بمقاصد الحملة

رجال انجلترا ومعداتها

ترعرع في ملك اليصابات اكبر رجال انجلترا وأشهرهم في كل العصور في تاريخ الفتوحات وسياسة الدفاع . فاجتمع من هؤلاء في بولين جرين في ١٩ مايو سنة ١٥٨٨ الآتية أسماؤهم : الاميرال السر فرنسيس دراك وهو أول من طاف حول الكرة الارضية من الانجليز . وكان ذكره يروع الاسبانيين في كل الدنيا . والسر جون هوكنز رواد البحار في اميركا وافريقية . والسر مارتن فوربيشر ، اكبر الفاتحين في الاقاليم القطبية ، واللورد هوارد افنغهام ، والسر ولتر راليه ، ثمستوكليس لندن ، فكان أميرلا وقائداً برياً وسياسياً محنكا

ومما يؤثر عن نوادر الانجليز انه كان قد تعين يوم ١٩ يوليو

للمسابقة البحرية . واشترك في هذه المسابقة ولتر راليه وفرنسيس دراك . وقبل أن يشرعوا بها جاءهم الربان فلامنغ الاسكوتلاندي ينذرهم ان الاسطول الاسباني وصل. ولم يكن حديث ولاهاجس ولا حلم ، لاحد في انجلترا وشمالي أوربا ، الا الاسطول . وخبر كهذا ، في وقت كهذا ، يقيم انجلترا ويقعدها . فبادر البحارة الى قواربهم ، وصاحوا برفاقهم لاعداد المعدات وانتظار الحرب . ولكن السر فرنسيس دراك وبخهم ببرودة انجليزية قائلا : « عندنا متسع من الوقت لاتمام السبق أولا ثم نكسر الاسطول » : فلعبوا في ذلك النهار أجمل لعب ، وأكثره انتظاماً ، كأنه لا خطر يتهددهم، وفوق رءوسهم أثقل ضربة حلت بأمة من الامم في حياتها . وبعدما أنهوا ألعابهم البحرية عادوا الى سفنهم واستعدوا للحرب

وانتشرت الاخبار في كل انجلترا ، وأنذرت كل مدينة ، وكل قرية ومزرعة ، ان العدو العظيم المخيف قد أتى ، فتشددوا أيها الانجليز وكونوا رجالا . فاتخذت العدة في كل خليج ، وكل جون أو خور . وشرعوا يجمعون الخيول والعربات والذخائر والرجال ، ولكن : أعظم قوة دفاعية في انجلترا في كل العصور هي الاسطول.

اليصابات

أرسلت الملكة اليصابات المناشير في البلاد ، تحث بها الناس في كل أقسام انجلترا للاجتماع والتعاضد والاستعدادات ، بالمال والمواد والرجال، لصد الغزاة الاجانب عن الوطن، وحماية النساء والاطفال ، والدفاع عن الكنائس والشواطىء الخ الخ. وكتبت المناشير بعبارات

مؤثرة تثير الحماسة في الصدور، وتجعل الدم الانجليزي ـ البارد ـ يغلي، خوفاً من بسط الاسبان أيديهم على التراث الانجليزي المقدس



الملكة اليصابات

وختمتها بهذه العبارة «ولنسلم أنفسنا وأمورنا للاله القدير، ليبارك القلوب المخلصة لمليكتها وبلادها ومجد الله الاعلى»

واردفت مناشيرها بخطبة رنانة، تلتها على مسامع الاعيان. ومنها «يا شعبي المحبوب. قد حذرنا بعضهم من الخيانة. ولكنني اؤكد لكم انني لا أحب الحياة بدون ثقة بكم. الظالمون يخافون، ولكنني بينكم دون أدنى تحفظ، واستودع نفسي وفوادي لعناية الله ومحبة رعاياي. فاما أن أموت معكم أو أعيش معكم» وكل الخطبة على هذا النحو

رأي راليه

قال الشاعر العربي: الرأي قبل شجاعة الشجعان. واليك خلاصة رأي راليه، يرد به على من قال بالانسحاب من الشطوط والدفاع عن لندن براً. «يجب أن تكون استعداداتنا الرسمية بحرية فعلينا اعداد اسطول قوي يضرب الاسبانيين في عرض البحر، ولا يدعهم يلامسون شطوطنا. ثم استشهد بحوادث خطيرة في

تواريخ أثينا ورومية وقرطجنة . وابان ان الفوز انما كان للبحر في كل العصور . ومن فاز بحراً فقد فاز نهائياً . قال فيجب إقصاء العدو عن أرضنا والا حسبها له وطناً . فتزداد قوة جنوده المعنوية ، وتضعف قوة جنودنا كذلك » . هذا رأيه الذي أدلى به في مؤتمر بولين جرين المشار اليه

قيام الاسطول

برح الاسطول نهر تاغوس في برتوغال ، في ٢ مايو ١٥٨٨ ، بابهة وحفلات عديمة المثال ، ورافقه الناس بالتهليل والادعية . وكلهم ثقة بفوزه التام . وان انجلترا قد بلغت نهايتها ولا معين . وانتهى بانتهائها تاريخ الاصلاح ، وما ينشأ عنه . على ان الاسطول لم يكد يبعد عن البر حتى هبت عليه عواصف شتتت شمله ، وكادت تغرقه فساقته بعنف الى نواحي بيسكي . ومات اميراله سنتا كروز الشهير . وسبب موته هو انه لم يتمكن من انفاذ مشيئة الملك فيليب ، فأنبه هــذا تأنيباً ثقيلاً جداً ، فانكسر قلبه ، ومات على الاثر . وخلفه على الاسطول الوازنز بيريه دوك سيدونيا ، وهو عديم الاهلية لمهمة كهذه . وكان مساعده فيها جوان دي مرتنيه ، وميغويل ادرجواندو

واستأنف الاسطول سفره بعد اصلاحه ، في ١٢ يوليو ، قاصداً القنال الانجليزي . فوصله دون حادث . وكانوا يؤملون ان الاسطول يضمن لهم السيادة البحرية . وأمرهم الملك فيليب ألا يوافوا البر الانجليزي ، بل يشططوا على البر الاوربي ، ويتخذوا فيه وازعاً

لهم . وبعد ما ينضم الاسطول الجديد اليهم ، الذي أعده برنس بارما ، يتوجهون معاً الى انجلترا

قوات الاسطولين

كانت قطع الاسطول الانجليزي أوفر عدداً ، ولكن قطع الاسطول الاسباني أكبر وأقوى . فلم يكن من مصلحة الانجليز الاشتباك بمعركة فاصلة . علاوة على ذلك كان على الاسطول الانجليزي أن يقسم قواته الى قسمين ، ويضع في كل ناحية قسماً . فأقام اللورد هنري سيمور على حصر مواني الاعداء بأربعين بارجة قوية . وكان اميرال الاسطول الانجليزي العام اللورد افنغهام

القتال

ظهر اللورد افنغهام بأسطوله في عرض البحر في ٢٠ يوليو سنة ١٥٨٨ . فانتثرت بوارج الاسطول الاسباني حوله ، في شكل هلال طوله سبعة أميال . فلم يعترضها ولكنه تعقبها ، يهاجم ساقتها . فأسر بعضاً من أهم بوارجها ، وعطل كثيراً غيرها . وكانت خسارة الاسطول الانجليزي زهيدة جداً . لانه لم يواجه الاسطول الاسباني . فكان الاسطول الاسباني يضعف كل يوم ، بما يفقد منه ، والاسطول الانجليزي يزداد كل يوم ، بما ينضم اليه ، من اسكوتلاندا وهولاندا وانجلترا . وقد انضم الى اللورد افنغهام الاميرالية شفيلد وكمبرلند وأوكسفورد ورالبه . واستأجر تجار انجلترا سفناً من أقسام الدنيا ، وركبوها ، وأتوا بها على نفقتهم لنجدة الوطن

فانسحب الاسطول الاسباني ، حسب أمر الملك فيليب ، الى مرفأ كاليه في ٢٧ يوليو . وكان برنس بارما ينوي أن يدخل نهر التايمز ،

ويحتل لندن أولاً . لانها ضعيفة التحصين ، وأهلها ذوو ترف وبذخ ، لا يميلون الى الحرب ، فيقبض بذلك على عنق انجلترا . ولكن الانجليز ، والهولانديين جمعوا سفناً وبحارة تكفي لاشغال الاسطول وحصر اسطول برنس بارما وتهديده . وكان الاميرال سيمور الهولاندي يقود أسطول هولاندا . فترك قسماً من اسطوله لسد ثغر دنكرك وحصر الاسباني الجديد ، وجاء بالباقي لنجدة الاسطول الانجليزي . وحصر الهولانديون خليج دنكرك بخمس وثلاثين سفينة شحنوها بحارة . فكان اميرالية الاسطول الاسباني يبغون الاتصال بامير بارما ، والاميرالية الانجليز يفصلون بينهم . فرابط الاسطول في خليج كاليه . وجعل بوارجه ذوات الابراج في عرض البحر كسور ، وضمنها البوارج الصغيرة في الحوض . فلم يكن الانجليز مهاجمتها . ولكنهم بعثوا اليها بثمان حراقات في ٢٩ يوليو ، كما عمل اليونان باسطول الفرس . فقطع الاسبانيون مراسيهم ، وشردوا في عرض البحار . وكانت بوارجهم تصطدم احداها بالاخرى . وفي صباح اليوم التالي هاجمها الانجليز متفرقة . فبدأ بالهجوم الاميرالان دراك وفنر ، تلاهم فنتن وسونول وبرتن وكروص ورينوز . فشتتوا شمل البوارج الاسبانية ، وأقصوها عن أسطول أمير بارما ، الذي كانت عيناه شاخصتين الى الشاطىء يرى اندحار أعوانه بقلب يتمزق غيظاً وكمداً . واليك وصف القتال بقلم معاصر للمعركة :

« في صباح ٢٩ يوليو ، عادت البوارج الاسبانية فاصطفت تجاه جرانفيلد . والتزمت خطة الدفاع . وكان في الاسطول الاسباني في هذا الموقف تسعون بارجة ضخمة ، لم يكن أمامها ، من هذه

الطبقة ، في الاسطول الانجليزي اكثر من ٢٣ او ٢٢ فقط . وباقي بوارجه صغيرة . وكان الانجليز يهجمون باسرع بوارجهم ، ومتى دنوا من جانب البوارج الاسبانيـة ضربوها وانسحبوا بسرعة . وظلوا على هـذه الـكيفية ، يضربون ويهربون ، ثم يعودون ويضربون ، حتى يحطموا البـارجة التي يضربونها او يأسروها . وواصلوا هجماتهم من الصباح الى الليل . حتى نفـدت ذخائر الاسـبانيين . فحلت بهم الخسارة الكبيرة . ولم يخسر الانجليز ولا بارجة . وأخيراً نشر الاسـبانيون شراعهم ، وسـاروا شمالا نحو نروج . فتركهم الاميرال افنغهام لرحمة الامواج . فاضرت هذه بهم اكثر من الاسطول الانجليزي . والخلاصة انه لم ينج من الاسطول الاسباني الا ٥٣ بارجة مهشمة . وفاز الانجليز بسحقه ، والسيادة البحرية من ذلك التـاريخ . ومن ذلك الحين . لم تحلم اسبانيا بغزو انجلترا . وكانت نكبة الاساطيل الاسبانية نقطة تحول وانقلاب في تاريخ اوربا والتمدن ، وبها فاز الاصلاح والديموقراطية

حوادث تالية

سـنة ١٥٩٤ : ارتد هنري الرابع ملك فرنسا الى الـكنيسة الـكاثوليكية

سنة ١٥٩٨ : توفي فيليب الثاني ملك اسبانيا

« ١٦٠٣ : توفيت اليصابات ملكة انجلترا

« ١٦١٩ : بدأت حروب الثلاثين سـنة في جرمانيا ، بين الـكاثوليك والبروتستانت

سنة ١٦٢٤ ـ ١٦٤٢ : وزارة الكردينال ريشيليو الشهير في فرنسا . وخلاصة أعماله . اذلال جرمانيا . وسحق الهغونوت والاشراف . وتعظيم ملك فرنسا .

سنة ١٦٣٠: نجدة غستافوس أدلفوس ملك اسوج البروتستانت في جرمانيا ومات ظافراً

سنة ١٦٤٠ : تحررت بورتوغال من نير اسبانيا

« ١٦٤٢ : النزاع في انجلترا بين شارل الاول والبرلمان

« ١٦٤٨ : صلح وستفالي بين الكاثوليك والبروتستانت نهاية الحروب الدينية

سنة ١٦٥٣ : دكتاتورية اوليفر كرمويل الانجليزي في انجلترا

« ١٦٦٠ : عودة آل ستوارت لعرش انجلترا بعد موت كرمويل

سنة ١٦٦١ : قبض لويس الرابع عشر على أزمة الحكم في فرنسا . وحروبه الكثيرة

سنة ١٦٨٢ : جلوس بطرس الكبير على عرش روسيا

« ١٦٨٥ : اضطهاد لويس الرابع عشر البروتستانت في فرنسا اضطهاداً شديداً

سنة ١٦٨٨ : ثورة انجلترا على جيمس الثاني ، وطرده من البلاد وملك وليم أورانج

سنة ١٦٩٧ : جلوس كارلوس الثاني عشر على عرش أسوج

« ١٧٠٠ : موت شارل الثاني ملك اسبانيا . ووصيته لفيليب دوك انجو

سنة ١٧٠١ : اتحاد انجلترا وأوستريا ضد لويس الرابع عشر بمساعي وليم أورانج

سنة ١٧٠٢ : موت وليم اورانج ، وتبوؤ زوجته حنة العرش مكانه . واعلان الحرب على فرنسا

الحادية عشرة

معركة بلانهيم

سنة ١٧٠٤

« لقد دوت صعقات معركة بلانهيم الفاصلة في أقسام أوربا ، وهدّمت صرح القوة الذي كان لويس الرابع عشر يتمنّع فيه »

(اليسن)

كانت معركة بلانهيم بين فرنسا والحلفاء ظاهرة من ظاهرات النضال في أوربا ، بين الحرية والاستعباد ، وهي صورة مصغرة للتاريخ العالمي اجمالاً . ولكي نفهم شأنها وعلاقاتها التاريخية والفلسفية ، يلزم أن ندرس عدة نقط ، كلويس الرابع عشر ، ووراثة العرش الاسباني ، وشخصية ماربورو ، وتقسية أوربا في القرن السابع عشر .

لويس الرابع عشر سنة ١٦٤٣ — ١٧١٥

قبض لويس على الاحكام بيد من حديد ، بعد ما مهد له الطريق ريشيليو ومازارين ، بسحق الاشراف والهغونوت . فأصبح لويس قطب فرنسا الاوحد ، وقال كلمته المشهورة : « أنا الدولة » وظل في هذه الدرجة من العز والمنعة اربعين سنة . وكما كان لويس قطب فرنسا كانت فرنسا قطب أوربا . اذ كانت أقوى الدول مالياً

وحربياً وادارياً وعلمياً .
وقد أدرك انها تعوزها البحرية ، فشرع ينشىء أسطولاً يضمن لها السيادة البحرية . وحارب كلاً من دول أوربا فحطمها ، وانتزع ما أراد من مدائنها ، وجعل لفرنسا هيبة في القلوب .
ونشر العلوم والمعارف والفنون ، فظهر في عصره وبعده كبار الشعراء والمفكرين في فرنسا



لويس الرابع عشر

حالة اوربا

كان المحيط الاوربي ملائماً لتحقيق أحلام لويس . اذ كانت اسبانيا قد دخلت في طور التقهقر بعدما أتمت مهمتها في طرد العرب من اوربا ، وكشف العالم الجديد ، ومحاربة الأصلاح الديني وأشياعه فتسلطت عليها عوامل الفساد ، وصارت آلة في يد التعصب والجمود

أما الامبراطورية الجرمانية ، فكان لها كثير من المشاكل ، وعوامل التقسم والضعف ، كميل هنغاريا للانفصال عنها ، وحروب الثلاثين سنة بين الكاثوليك والبروتستانت التي ختمت بعهدة وستفالي

وكانت انجلترا مغلولة اليد بمشاكلها العديدة بين اسرتي تودور وستوارت ، وبين الامة ، وبين الكاثوليك والبروتستانت . كقيام

الامة على شارل الاول ، واعدامه سنة ١٦٤٨ ، وحكم كرمويل الذي كان لويس يخاطبه باسم سيدي الوالد ، وعودة سلالة ستوارت بشخص شارل الثاني ، وخلعه سنة ١٦٨٨ ، وخلفه وليم اورانج وحنة امرأته . فترى انه كان لكل دولة ، من دول اوربا المعظمة ، ما يغل يدها عن لويس ، فخلا له الجو ، وأتم مقاصده . فلما تفرغت انجلترا من مشاكلها الداخلية حوّلت نظرها لمناقشة فرنسا الحساب

مارلبورو

لكل متنفذ في التاريخ بطل يقاومه ، ويدك صروح آماله ، فنسميه شيطانه . فكان ملتيادس اليوناني شيطان داريوس الفارسي ، فدك صروح آماله في معركة مراثون . وكان ارمينيوس الجرماني شيطان ڤاروس الروماني ، وولنجتن الانجليزي شيطان نابليون بونابارت الفرنسي ، وبطرس الاكبر الروسي شيطان كارلوس الثاني عشر الاسوجي . هكذا كان مارلبورو شيطان لويس الرابع عشر . فمن هو هذا مارلبورو ؟ هو جون شرشل دوك مارلبورو الممتاز بصفاته الحربية ، ومزاياه في تنظيم المعارك وادارة شؤونها . وقد أخفى ضوءه كل بارق في قوّاد عصره .



مارلبورو

وقال فيه السر ادوارد كريسي « انه أعظم القوّاد الذين أنجبتهم انكلترا في كل الاجيال يستثنى منهم ولنجتن فقط » . فلم يخض معركة الا خرج ظافراً ، ولا حاصر مدينة الا فتحها . والسر في فوزه أوضاعه الشخصية . فلم تكن تنقصه صفة من صفات كبار القواد زد على ذلك اتساع نطاق خبرته ، وهدوء روحه ، ورابطة جأشه في أثناء ثوران البراكين . وهي الصفة التي قال فيها فولتير « أنها السر في تفوق الامة الانجليزية وسيادتها في الدنيا »

كان وليم اورانج رجل عصره ، والسند الذي لجأت اليه انجلترا لحل مشاكلها الدينية والسياسية ، وهو زوج حنة ابنة الملك جيمس الثاني ملك انجلترا ، وهي بروتستانتية ، وأبوها كاثوليكي .. فلما ثار الانجليز على ملكهم جيمس وخلعوه ، ارسلوا فدعوا وليم هـذا ، ووعدوه أنهم يسلمونه أزمة الملك على انجلترا . وكان وليم ركناً من أركان البروتستانتية في اوربا . فجاء وليم وحنة باسطولهما الى انجلترا. وحالما وصل أتى اليه كبار الامة الانجليزية ، وبايعوه بالملك عليهم . فهرب جيمس الى فرنسا ، واتفق مع لويس الرابع عشر على انتزاع الملك من يد وليم . مع ان وليم لم يكن يحلم بغير عداوته ، وكان يحسبه أعظم خطر يتهدد انجلترا واوربا والاصلاح . فكان اصغاء لويس لجيمس مساعداً وليم على انفاذ سياسته . وزاد الطين بلة أمر التاج الاسباني وهاك حكايته

فيليب دوك انجو

كان شارل الثاني ملك أسبانيا بدون وريث ذكر ، لا ابن ولا أخ . وكان له اختان تزوج من احداها ليوبولد امبراطورالمانيا ، و الثانية ،

وهي انفتا ، لويس الرابع عشر . آملين انه عند موته ترث المانيا وفرنسا أملاك التاج الاسباني . ولما توفي شارل سنة ١٧٠٠ ظهرت وصية كتبها هو ، وبها يوصي بكل أملاك التاج الاسباني لفيليب دوك انجو ، حفيد اخته زوجة لويس الرابع عشر . وكان عمر فيليب يومئذ ١٨ سنة . وقد نفذ لويس وصية شارل ، فارسل حفيده الى مدريد ، وقال له عند وداعه انه « لا وجود من ثم لجبال بيرينيه » . أي انه صارت اسبانيا وفرنسا مملكة واحدة . ولما وصل فيليب الى اسبانيا ، توّجوه باسم فيليب الخامس . وطنطنت صحف فرنسا بفوز سياسة ملكها لويس . فأثار هذا العمل حقد ليوبولد امبراطور جرمانيا ، فانضم الى المحالفة الانجيلية ضد لويس . ومبدع هذه المحالفة وليم اورانج . اتحد بها انجلترا وهولندا وجرمانيا ، ثم انضمت اليها دانمارك كما سيجيء . وقد ذكرت ان مارلبورو تعين قائداً عاماً لجيوش المحالفة . فلما حضرت وليم اورانج الوفاة ، أوصى حنةزوجته بمارلبورو هذا لانفاذ خطة المحالفة . وفي اليوم الثالث من المحالفة نزلت حنة الى البارلمان ، وصرحت انها محتفظة بسياسة الملك وليم — زوجها — ولذلك تزوجت بعده جورج أمير دانمارك . فانضمت بذلك دانمارك ، أيضاً ، للمحالفة . وكان مارلبورو الضمان الوحيد لفوز المحالفة ، فحرصت الملكة حنة على حمل الحلفاء على قبوله قائداً عاماً لجيوشهم . وبذلك وحدوا القيادة ، وأعطوا القوس باريها . لان مارلبورو هو الرجل الوحيد الذي أعدته الطبيعة لقهر لويس الرابع عشر . قال بولينبروك خصم مارلبورو فيه ما نصه « انه حاز على نفوذ يزيد كثيراً على نفوذ التاج وذلك عن جدارة شخصية

فانه بفضله حققت المحالفة وفازت على خصمها العنيد . فان مارلبورو أعظم القواد الذين أنجبتهم انجلترا »

الحرب

أعلنت الحرب بين الحلفاء وبين لويس في ٤ مايو سنة ١٧٠٢ . وكانت أول معاركها في فلاندر ، وفي أقاليم الرين العليا ، وفي شمالي ايطاليا . فخاضت فرنسا الدمعان ضد الحلفاء على طول الخط ، من مصب نهر شلوب شمالا الى نهر بو جنوباً . واتحد مع لويس منتخب بافاريا الناقم على الامبراطور ليوبولد . واتصلت جيوش فرنسا بجيوش بافاريا . وهددت الامبراطورية الجرمانية بتفكك العرى ، وتقطع الاوصال . وفازوا على جيوش الامبراطور في خريف سنة ١٧٠٣ فوزاً كبيراً . وضربت الجيوش الفرنسوية جيوش الحلفاء في أعالي الرين . وانتزعت منهم مدينتي ترافيس ولاندو . زد على ذلك ان هنجاريا ثارت ، تروم الانسحاب من الامبراطورية فحل الذعر في قلب الامبراطور ، وتحرج مركزه كثيراً

وأصدر لويس أوامر حربية لم يجرؤ نابليون بونابرت على اصدار اعظم منها . وفحواها : تلتزم الجيوش الفرنساوية خطة الدفاع في هولاندا مستندة الى الحصون المنيعة . وقد أمدها الملك بنجدات عسكرية بقيادة فيوري . والى جنوبيه المارشال تيلارد ومعه ٤٥٠٠٠ محارب . وهو يشغل الخط بين هولاندا وبافاريا . ويحفظ اتصاله بجيوش بافاريا بواسطة المارشال مرسين . وتتقدم الجيوش الفرنسوية من ايطاليا الى أوستريا بطريق التيرول . فتنضم الى جيوش تيلارد ومرسين . وتزحف على فينا ، وترسل فرقة منها الى

هنغاريا لشد أزر الثوار . وبذلك ترغم الامبراطور ليوبولد على توقيع الشروط التي تمليها عليه فرنسا

وهـذه التعليمات تشهد للويس الرابع عشر بالاهلية الحربية . وقد أدرك مارلبورو ما فيهـا من الخطر على قضية الحلفاء . فكان عليه ، كقائد ، أن يدفع الخطة الحكيمة بخطة حكيمة . وكان نفوذ خطة لويس ، وسقوط الحلفاء أمامه ، أمراً لا ريب فيه لولا حنكة مارلبورو

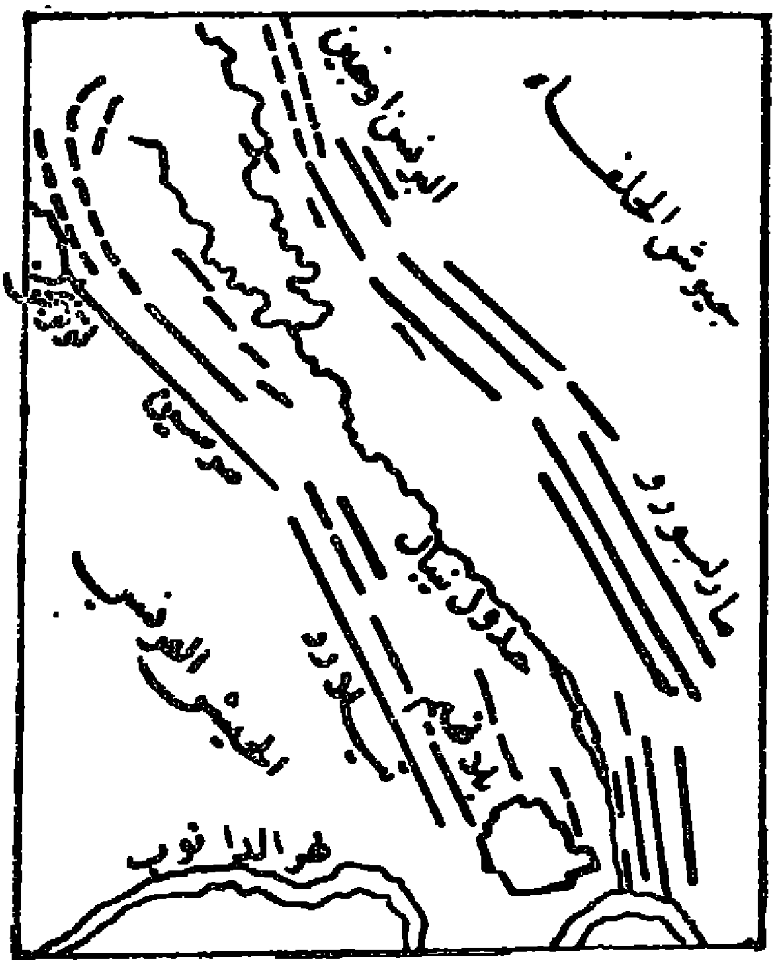
حركة مارلبورو الفنية

كان مركز مارلبورو في فلاندر ، وقد انتزع هنـالك بعض المدن من فرنسا . على انه لما نظر في خطة لويس نظرة ثاقبة أدرك ما فيها من الدقة . فتبين له ان المعركة الفاصلة ليست في فلاندر بل في أوستريا ــ على ضفاف الدانوب ــ فعزم على الاسراع الى ذلك الميدان ، ولم يكن ذلك بالامر السهل عليه . لان هولاندا متشبثة به كالسند الوحيد لنجاتها من جيش فيوري . ولـكن مارلبورو أدرك أهمية موقفه . وانه يحمل على منكبيه مصلحة أوربا جمعاء . واذا لم يضرب الضربة الحاسمة في وقتها ، وفي محلها ، دكت صروح التدابير السياسية والحربية معاً ، وهوت اوربا أمام آل بوربون والفاتيكان، الى أعمق دركات الاستعباد والهوان

وكان لمارلبورو عضدان ، يستند اليهما ويشركهما في الرأي ، وهما هيسينيوس السياسي الهولاندي الشهير ، والقائد أوجين الخبير الحاذق

الى هذين القطبين افضى بخطته الجديدة ، وظلت سراً مكتوماً

عن الآخرين . وبرح مارلبورو فلاندر في ١٩ مايو سنة ١٧٠٤ . وكان أخوه ينتظره على ضفة نهر موز ومعه ١٦٠٠٠ جنـدي انجليزي ، هم عدته في خوض المعركة الفاصلة . فاسرع بهم الى وادي الدانوب ، وقواد لويس حائرون فيما هي خطته . فالتقى بالقائد أوجين في مندلشين ، فصحبه الى ميدان الفصل . واقتحم هضاب شيلانبرج في ٢ يوليو، وعبر الدانوب، وانضم الى جيش الامبراطور في ١١ اوغسطس . وحل تجاه الجيوش الفرنسوية والبافارية النازلة بين بلانهيم ولوتزنجن



ميدان بلانهيم

كان الميدان على ضفتي نهر نيبال . فالى شماليه لوتزنجن، وراءها هضاب وعرة ، والى جنوبيه بلانهيم ، وراءها الدانوب . وكان عدد الجيش الفرنسوي ٦٠٠٠٠ معهم ٦١ مدفعاً ، وجيش الحلفاء ٥٦٠٠٠ معهم ٥٢ مدفعاً . وفي هذه المعركة استعملت السنك لاول مرة في الحرب . وكان على مارلبورو ان يوقع الضربة على هام العدو ، قبلما يتحرك فيوري الى فرنكونيا ، فيقطع عنهم المهمات ، أو ينضم الى تيلارد ، فتختل الموازنة بين الجيشين . وكان تيلارد القائد الفرنسي العام في ميدان بلانهيم . فرتب جيشه هكذا

نزل هو في بلانهيم ومعه جناح الجيش الايمن . ووضع المارشال مرسين في لوتزنجن ومعه الجناح الايسر . والبرنس مكسيمليان في القلب . وكان معه في بلانهيم ٢٦ فصيلة مشاة و ١٢ كوكبة خيالة . وفي لوتزنجن ٢٢ فصيلة مشاة و ٣٦ كوكبة خيالة . وفي القلب ١٤ فصيلة مشاة و ٨٦ كوكبة خيالة . ووضع سبع فصائل ارلندية بين بلانهيم وايرجلو

أما مارلبورو فرتب جيشه على هذه الصورة : وضع اوجين في الشمال تجاه مرسين ، وهو في الجنوب تجاه تيلارد والبرنس مكسيمليان وبدأت المعركة في ١٣ اغسطس

وابدى مارلبورو في هذه المعركة من الشجاعة والحكمة ما أحله في مصاف كبار القواد في كل العصور . فضرب ضربته الحاطمة على أضعف النقط في خط العدو ، اعني في القلب ، فاخترقه . ودار بالجناحين فسحقهما سحقاً ، بعد معارك تجعل الولدان شيباً . وأسر

من الاعداء ٢٤ فصيلة مشاة و ١٢ كوكبة خيالة . وربح المعركة ، وحل الحلفاء على أثرها مدن ألم ولاندو وترابرباخ . وحبطت مساعي لويس الرابع عشر ، ونجت اوربا والاصلاح من الرجعية . وهي خطوة كبيرة في سير التمدن الى الامام

حوادث تالية

سنة ١٧٠٥ : حل الارشيدوق شارل هبسبرج مدينة برسلونا في اسبانيا بمساعدة الجيش الانجليزي

سنة ١٧٠٦ : فاز مارلبورو في رامالي

سنة ١٧٠٧ : اندحر الجيش الانجليزي في اسبانيا بمعركة المنزا

سنة ١٧٠٨ : فاز مالبورو في اودنارد

معركة بلتاوا

سنة ١٧٠٩

لم تنشب في التاريخ معركتان فاصلتان ، بهذه الدرجة من الاهمية في خلال خمس سنين ، الا معركتي بلانهيم وبلتاوا . الاولى بين لويس الرابع عشر والحلفاء ، وقد مر بيانها ، والثانية بين بطرس الاكبر وكارلوس الثاني عشر ، وفيها الكلام الآن

الامبراطورية الروسية

لم يكن أحد من عظماء أوربا ، الى ذلك الحين ، يعير روسيا التفاتاً ، أو يشعر بوجودها . اذ كانت بعيدة عن كل بحر ، ومحصورة في حلقة ضيقة النطاق ، حول موسكو ، وهي روسيا الكبرى ، وقطعة ثانية عند حدود بولاندا وهي روسيا الصغرى

أسس الدولة الروسية روريك الاسوجي ، في أواسط القرن التاسع ، وتنصرت قبيل أواخره في عهد فلاديمير . وكانت تدفع الجزية لخانات التتار الى سنة ١٤٨٠ . وصار ملوكها يدعون قياصرة سنة ١٥٤٧ . وبدأت فيها سلالة رومانوف سنة ١٦١٣ بالامير رومانوف . ولكنها بدأت في التوسع والعظمة منذ عهد بطرس الاكبر بطل معركة بلتاوا ، حتى بلغت الحدود التي سنراها في حرب اليابان

كانت أسوج رهبة أوربا في القرنين السادس عشر والسابع عشر . وقد هز أوربا غستافوس ادلفوس ، لما نزل بجيشه لنصرة الاصلاح في جرمانيا . وخاض المعامع المقدسة ، وختم فوزه بدمه ، واشتهر بعده كارلوس الثاني عشر ، البطل المغوار ، فكانت دول أوربا تتسابق الى خطب وده ، وكانت أسوج في عصره تسيطر على فنلاندا واستونيا وكورلاندا وليثوانيا وبولندا ودانمارك ونروج

وثار على كارلوس الثاني عشر ثلاثة ملوك معاً ، وهم بطرس الاكبر القيصر الروسي ، وأوغسطس ملك سكسونيا وبولاندا ، وفردريك الرابع ملك دانمارك . فهب لمناقشتهم الحساب . وكان الشعراء والمؤرخون يطنبون في وصف كارلوس . على انه ، مع شجاعته النادرة المثال ، لم يكن في الدرجة الاولى في فن القيادة وترتيب المعارك . ولكن شهرة اسوج ، والانتصارات التي أحرزها ، أعلت منزلته ، وكان اسمه يروع الناس أنى ذكر

اهمية معركة بلتاوا

لم تكن معركة بلتاوا نضالاً بين شخصين ، ولا بين دولتين ، أو أمتين . بل بين عنصرين من أشهر عناصر أوربا ، وهما السلافي والجرماني . يمثل الاول بطرس ، والثاني كارلوس

كان العنصر الجرماني قد انتزع الزعامة من العنصر اللاتيني بمعارك ارمينيوس أولاً ، وبفوز جنسريك وسقوط رومية ثانياً . فتكونت من القبائل الجرمانية ممالك أوربا العظمى وهي انجلترا وهولاندا وجرمانيا ودانمارك وأسوج ونروج

والآن (سنة ١٦٩٢) ظهر في الزاوية السلافيـة ، في قارة أوربا ، بطل طبق ذكره الآفاق ، فأعلى منار هذه الامة الخاملة المجهولة . ووسع حدودها ، وقهر جيرانها ، وحارب كارلوس العظيم. فدخل هذا بلاده الروسية ، وهو الآن عازم على ان يخوض معه المعركة الفاصلة . وعلى نتيجتها يتوقف مصير العنصر السلافي . فاما أن يرجع الى ما وراء ايفان ، أو يرتفع الى مصاف الدول العظمى . وذلك البطل الجديد ـ الروسي ـ هو بطرس الـكبير

بطرس الـكبير

هو أشهر من أنجبته روسيا في كل العصور . وبحق يدعى مؤسس الامبراطورية الروسـية . وُلد سنة ١٦٧٢ . وخلف أباه ايفان سنة ١٦٩٢ . وهو بعد فتى . ولم تكن لمملـكته أسكلة بحرية . وكان الروس أسيويين في أزيائهم ونفسيتهم وأسلوب حياتهم . فوضع بطرس نصب عينيه أمرين . الاول الاتصال بالبحر لانشاء الاساطيل والثاني حمل شعبه على اقتفاء آثار الغربيين ، في أزيائهم ومناهج حياتهم . كما عمل مصطفى باشا كمال في الاناضول في هذه الايام



بطرس الـكبير

ولـكي يفوز بطرس بتحقيق أحلامه ، انتقى نخبـة من شبان

بلاده ، وأرسلهم لطلب العلوم في ايطاليا وهولاندا وانجلترا . ثم ذهب هو بنفسه ، متجولاً في غربي أوربا . فزار بروسيا وهولاندا وانجلترا وأوستريا . ودخل معملاً للسفن في قرية « زان » قرب امستردام متخفياً باسم المعلم بطرس . وكان يعمل بيديه مدة أربعة أشهر . وشبت ثورة في روسيا في غيابه . فعاد اليها مسرعاً لاخماد الثورة . ولما وصل وجدها قد أخمدت . فأحلّ بمثيريها عقوبات صارمة جداً . وقضى باعدام الف من زعمائها . ونفذ حكم الاعدام في بعضهم بيده . ثم شرع في اصلاح البلاد . فأمر القوم بقص الاردان ، وحلق اللحى ، ونزع الحجاب النسائي ، وارتدائهن الملابس الاوربية . ثم نظم دوائر المالية والحقانية والحربية ، على النمط الاوربي . وسك النقود ، وأسس المدارس ، وأنشأ المعامل ، وأصلح الطرقات ، ومد الاقنية ، ونظم البريد ، وسن الشرائع ، وفتح المناجم . وأهم اصلاحات بطرس الغاء البطريركية ، وتشكيل المجمع الروسي المقدس بدلها . وبذلك دك أعظم صروح الرجعية في روسيا . وشرع في بناء مدينة بطرسبرج . فكان اصطدامه بكارلوس أمراً طبيعياً ، لان بطرسبرج في أراض أسوجية (في ذلك الحين)

حركة كارلوس

قام كارلوس من أسوج بثمانين الف محارب ، من أبطال اسكندناوية . فضرب الملك فردريك في دانمارك . وفي خلال اسبوعين ردّه الى الصواب . وادهش اوربا بما أبداه في دانمارك من المقدرة والبأس . ثم جاء روسيا وضرب جيشاً عدده ٥٠٠٠٠ بجيش عدده ٨٠٠٠ فقط . وحلّ الدسائدت قرب ليبزك في سبتمبر

سنة ١٧٠٧ . وكان معه في جرمانيا ٤٥٠٠٠ . وترك مع القائد لوانهوبت ٢٠٠٠٠ وفي بولاندا ١٥٠٠٠ وضرب اوغسطس ملك بولاندا ، وخلعه ، ونصّب مكانه ستانسلاو ، وترك له ١٠٠٠٠ حرساً . وجاء روسـيا يناقش بطرس الحساب . فبلغ جرودنو ، قضى فيها فصل الشتاء سنة ١٧٠٨ . وعبر غابة منسك في شهر يونيو . وقابل الجيش الروسي في بوريسوف


كارلوس الثاني عشر

واقتحم قسماً منه على ضفة بريشتنا اليسرى. وقهر عشرين الفاً كانوا متحصنين ، وراء المستنقعات الشهيرة . وعبر نهر بريشيس عند موهيلوف ، وأباد جيشاً روسياً عدده ١٦٠٠٠ قرب سمولنسك في ٢٢ سبتمبر . وبلغ أواخر ليثوانيا ، وصار على حدود روسيا الاصلية . فخاف بطرس ، والتمس الصلح . ولو ظل كارلوس في طريقه الى موسكو لاحتلها . ولـكنه عرج عن طريقها الى اوكرانيا ، حيث لقي مازيبا بالمدد ، وعدده ٦٠٠٠ فصار خطه من اسوج الى اوكرانيا ٤٠٠ فرسخ ، فعجز عن حمايته

استعداد بطرس

حشد بطرس ١٠٠ الف جندي ، شغل كل وقته في اعدادها وتدريبها ، وفيما كان القائد لوانهوبت في طريقه الى اوكرانيا ،

للاتصال بكارلوس ، فاجأه بطرس بخمسين الفاً في بروزنيت . واصلاه حرباً شديدة ثلاثة أيام . وأخيراً أفلح لوانهوبت في اختراق خطوط الروس ، ولكن باربعة آلاف فقط ، وقد مر بك ان جيشه كان ٢٠٠٠٠ ، تاركا وراءه كل مدافعه وذخائره غنيمة في يد العدو وكان كارلوس في شديد الحاجة اليها . فاضطر أن يقضي فصل الشتاء في اوكرانيا . وخرج في ربيع سنة ١٧٠٩ قاصداً موسكو . وأحاط باسوار بلتاوا ، على نهر فورسكلا ، حيث خزن القيصر المؤن والذخائر . وكان لكارلوس بامتلاك بلتاوا فائدتان . الاولى الحصول على المؤن والذخائر ، والثانية التحكم في طريق موسكو . فشدّد عليها الحصار لهاتين الغايتين

المعركة

ورأى القيصر ان الضرورة قاضية بفك الحصار عن بلتاوا . فسار اليها في يونيو بخمسين الفاً . واستعد الملكان للعراك ، ووراءهما العنصران السلافي والجرماني . فعبر بطرس نهر فورسكلا بحركة فنية ، ونزل على نفس الضفة التي كان عليها الاسوجيون . وكان فورسكلا يصب في بوريثنيس على بعد ١٥ فرسخاً تحت مدينة بلتاوا . فرتب بطرس جيشه في صفين ممتدين من النهر الواحد الى الآخر . بحيث اذا هاجمه الاسوجيون واندحروا يكون خط رجوعهم ملتقى النهرين . وحصن بطرس خطيه بعدة استحكامات مجهزة بمدافع ضخمة ، وكانت جنوده في أحسن حالاتها مشاة وفرساناً ، ومعهم المؤونة الكافية

وكان الجيش المحاصر ٢٤٠٠٠ نصفهم أسوجيون ، والباقون

من القوزاق والفلاخ والاوكرانيين ، وكان البرد والجوع والمرض قد قرض الجيش الاسوجي الذي مع لوانهوبت . فلما سمع كارلوس بقدوم القيصر بادر لمهاجمته ، وكان كارلوس قد جرح جرحاً بليغاً في رجله ، في مناوشته ، منذ بضعة أيام

فاشتبك الجيشان في القتال ، واستبسل الاسوجيون على قلة عددهم وعِددهم ، وكذلك رفقاؤهم القوزاق والفلاخيون ، فانتزعوا خطين من استحكامات الروس ، ولم يحرك بطرس ساكناً ، وظلت مدافعه وبنادقه صامتة ، وحينئذ كرت صفوفه المرتاحة ، وهجمت على تلك الاستحكامات . فزحزحت الاسوجيين المضنوكين تعباً وجوعاً . وفي الوقت نفسه قاد القيصر المشاة والفرسان في الصف الاول خارج الاستحكامات ، وتقدم بهم ببراعة ونظام . فالتحم الجيشان ، وحمي الوطيس بينهما ، في الاراضي المكشوفة . ولم تمر ساعتان حتى تأخر الاسوجيون ، الذين لم يكونوا ليدحروا في ميدان . وحينئذ سادهم التشويش واليأس . وساقهم بطرس « بمهارة » الى الشرك الذي نصبه لهم ، اعني ملتقى النهرين ، فهلك اكثرهم ، وأسر الباقون . ولم ينج منهم الا بضع مئين صحبوه الى قسطنطينية . وكان القتلى من جيش كارلوس ١٠٠٠٠ . فلما ربح بطرس المعركة صرخ قائلا « الآن هبط نجم كارلوس وتوطدت دعائم بطرسبرج »

وتنازل كارلوس للقيصر ، في صلح نيستادت ، عن بقاع جميلة واسعة ، منها محيط بطرسبرج . وبدأ بطرس ، على أثر فوزه ، بمهاجمة الفرس والاتراك . ومن ثم نشأ العداء بين آل رومانوف

وآل عثمان ، وظل حتى انقرضت الاسرتان . ولم تقم لاسوج قائمة بعد معركة بلتاوا

حوادث تالية

سنة ١٧١٣ : عقد الصلح بين الدول الاوربية في اوترخت . فنال فيليب بوربون ملكا على اسبانيا ولكن ضمت ايطاليا وهولاندا لجرمانيا وتخلت اسبانيا لانجلترا عن بوغاز جبل طارق

سنة ١٧١٤ : ماتت حنة ستوارت ملكة انجلترا

سنة ١٧١٨ : قتل كارلوس الثاني عشر ملك اسوج في فردركسل

سنة ١٧٢٥ : مات بطرس الاكبر القيصر الروسي العظيم

سنة ١٧٤٠ : ملك فردريك الكبير على بروسيا ، وغزا سيليجيا

سنة ١٧٤٢ : شبت الحرب بين فرنسا وانجلترا

سنة ١٧٤٣ : فاز الانجليز على الفرنسيين في ديتنجن

سنة ١٧٤٥ : فاز الفرنسيون على الانجليز في فونتنوي

سنة ١٧٤٨ : المصالحة بين المتحاربين في اكس لا شابل

سنة ١٧٥٦ـ ١٧٦٣ : حرب السبع السنين ، بروسيا ضد روسيا وفرنسا والنمسا

سنة ١٧٦٣ : انتزاع انجلترا كندا من فرنسا بعد معركة كويبك الشهيرة

وبلغت انجلترا اوج مجدها بمعاهدة باريس سنة ١٧٦٣

الثالثة عشرة

فوز الاميركان

في ساراتوغا سنة ١٧٧٧

ان ما كان يحسب نبوءة ، قبل مائة سنة ، صار الآن تاريخاً. فقد تنبأ الدكتور توكوفيل ان سكان اميركا الشمالية سيبلغون ١٥٠ مليوناً . وهم اليوم كذلك . مائة وخمسون مليوناً هم ارقى وأغنى واعلم واجمل واقوى بني الانسان في كل العصور . يستثنى من هذا الحكم سكان الاقسام الجنوبية منهم ، اعني مكسكو وما دونها جنوباً . ما انس لا انس تجوالي في جنبات الولايات المتحدة وكندا ثلاثين شهراً . تحملني غبراؤها ، واتنشق نسماتها ، وارى مجالي جمالها ، وقد رسم ذلك على قلبي آثاراً خالدة

انشئت الجمهورية الاميركية الكبرى ، المدعوة الولايات المتحدة سنة ١٧٧٦ ، في مدينة فيلادلفيا في ولاية بنسلفانيا ، وهي اليوم ثالثة مدن الجمهورية اتساعاً وعظمة. وكان الحضور نواب ثلاث عشرة ولاية هي : ماساشوستس ، نيوهمشير ، كنكتيكت ، رودايلاند ، نيويرك ، نيوجرزي ، دلاوار ، ماري لاند ، بنسلفانيا ، فرجينيا ، نورث كارولينا ، سوث كارولينا ، جورجيا . وبعد القرار سألوا احدهم ، وهو العالم الطبيعي الشهير بنيامين فرنكلين ، ان يختم عملهم

بالدعاء ، فصلى مستودعاً الجمهورية ، المولودة الآن ، عناية الله

ولم يكذب تشاؤم الناس بالعدد ثلاثة عشر كما كُذِّب في تأسيس



واشنطن

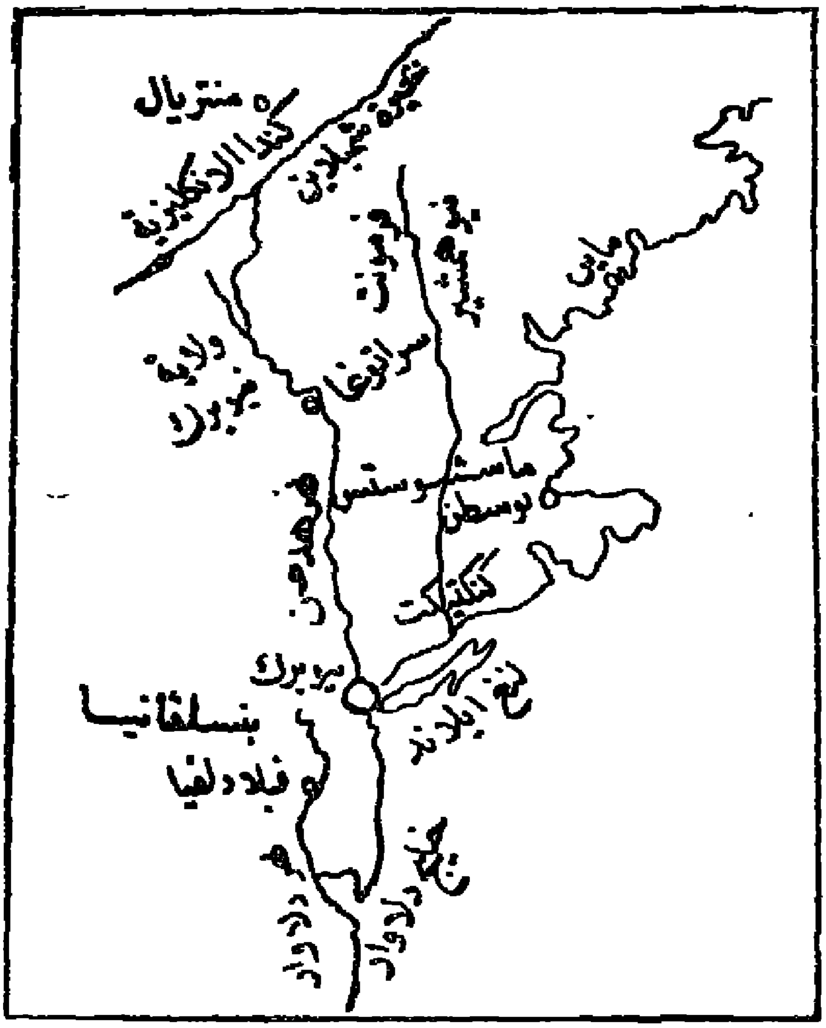
الولايات المتحدة ، اذ كانت أسعد حالا من كل جمهورية في التاريخ ، مع ان عددها كان ١٣ . وقد بلغت اليوم ٤٨ ولاية سكانها ١٢٠ مليوناً . وفي كندا ١٠ ملايين . وفي مكسكو والجمهوريات الصغيرة الى جنوبيها ٢٠ مليوناً . ومجموع سكان القارة ١٥٠ مليوناً

كان لانجلترا ، يومئذ ، في كندا جيش قوي ، فأعدته للزحف على العصاة ، لردهم الى طاعة الام ، انجلترا . وأمدته بسبعة آلاف مجهزين بالاسلحة والذخائر . وعقدت لواءه على الجنرال بورجوين البطل الشهير ، الذي شهد له الاعداء ، قبل الاصحاب ، باصالة الرأي وحسن الادارة ، وتدبير المعارك

جمع بورجوين جيوشه على ضفاف بحيرة أونتاريو ، ونهر سنت لورانس . وأعدهم لخوض المعارك فيأودية هدصن ودلاوار وأوهيو وقرر أن يسير جنوباً بطريق البحيرات ، ووادي هدصن ، فيلاقيه الجنرال كلنتن ، الصاعد من نيويرك بالذخائر والامداد ، فيصل الخط العسكري بين نيويرك وكندا . ويفصل الثوار ، ثم يسحق جيش نيوانجلاند ـ ماساشوستس واخواتها ـ وبذلك تختم الحرب ، ويخفق العلم الانجليزي ثانية تحت سماء العم سام. فقامت الحملتان الانجليزيتان، من كندا ونيويرك ، في وقت واحد وكان مركز الجيش الاميركي الرئيسي ، وقائده جورج واشنطن ، في بنسلفانيا ، مسقط رأس الجمهورية . وكان يرقب ماجريات الحرب ، ويدير حركاتها

وكان الانجليز واثقين بالفوز ، لتفوقهم مالاً ورجالاً وتهذيباً . وكان مجموع رجال الحملة ١١٤٤٣ ، وتحت قيادة بورجوين قائدان آخران ، هما الجنرال فيلبس ، والجنرال فريزر . وكان معه عدد من الهنود الحمر ، سكان أميركا الاصليين . فاجتمع الجيش الانجليزي على ضفاف نهر بوكويسه . قرب بحيرة شمبلاين ، شمالي ولاية نيويرك ، في ٣١ يونيو سنة ١٧٧٧ . ثم جاءت كرون بوينت وهو

حصن اميركي بين بحيرتي جورج وشمبلاين . وحلت الحصن بدون معارضة ، لان الاميركان أخلوه . وكان الانجليز يحسبون حساباً



خريطة ميدان الحرب الاميركية

لمقاومة الاميركان في حصن «تكونديراجا» على ١٢ ميلا الى الجنوب وهو مفتاح الطريق الى نيويرك . ولكن القائد الاميركي ، سنت كلير ، أخلاه بسبب ضعف جيشه ، وعدده ثلاثة آلاف . فكان فرح الانجليز عظيما بذلك . وحسبوه فوزاً لهم ، وأملوا قرب انتهاء الحرب . وأفاضت صحفهم في اطراء بورجوين ، ووصف انتصاره « العظيم »

ولم يكن كدر الاميركان أقل من فرح الانجليز . ولكن حكومة نيو انجلاند قررت مواصلة القتال . فعزلت سنث كلير ، وولت الجنرال جايتس ، وجعلت وازعه الحربي « سراتوغا » . وأثار حماسة الاميركان لمواصلة القتال ما ذاع بينهم عن فظائع الهنود الحمر ، الذين رافقوا الحملة الانجليزية ، واعتدائهم على النساء والاولاد

وحدثت حادثتان أضرتا بمركز الحملة عسكرياً ، الاولى انكسار حملة الجنرال سنتلارجر ، في حصن ستانويكي . والثانية : انكسار الجنرال باوم في بننجتن ، فهرب جنوده وتركوه جريحاً . ثم ضرب الاميركان النجدة المرسلة له ، وعددها ٥٠٠ جندي . وبالرغم من هاتين الحادثتين ظل بورجوين مصمماً على استئناف السير بالحملة . وأصبح ذلك ضربة لازب لما انقطعت مواصلاته بكندا . فاذا لم يتمكن من الاتصال بنجدة كلنتن هلكت حملته على بكرة أبيها

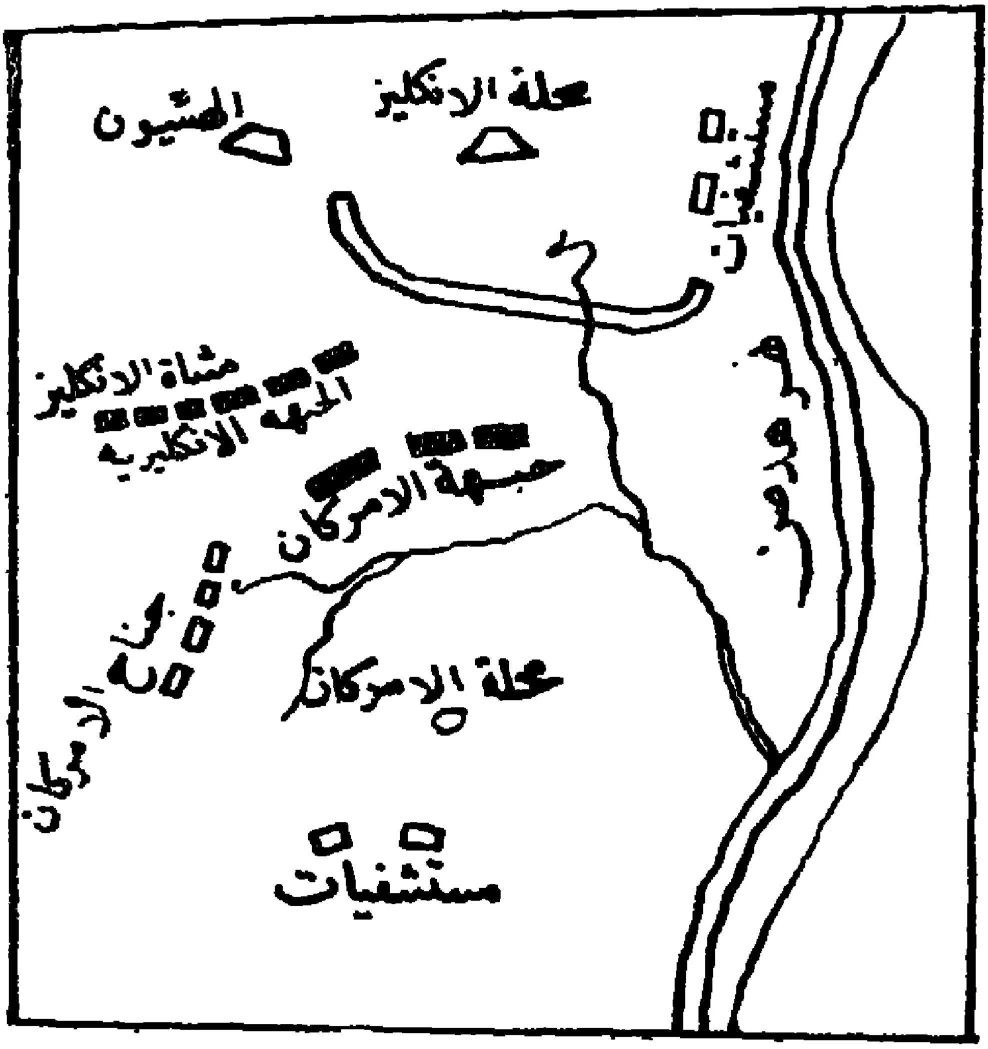
فانسحب الاميركان من سراتوغا الى موقع منيع ، قرب «ستل ووتر » في منتصف الطريق بين سراتوغا والبني . وكانت الاراضي بينهم و بين الانجليز وعرة ، كثيرة المنحدرات والجداول . ولكن الانجليز بذلوا جهدهم في مد الجسور ، وتمهيد الصعاب ، وواصلوا تقدمهم الى ستل ووتر . فوصلوها في ١٩ سبتمبر . وحلوا على أربعة أميال من سراتوغا

المعركة الابتدائية

فشبت معركة بين جناح بورجوين الايمن بقيادته ، وبين الاميركان بقيادة جايتس وارنولد . وظل القتال ناشباً الى غروب

الشمس . وكانت الخسارة متساوية في الجانبين ، ولم يتم عمل فاصل . وظل الجيشان على مرمى رصاص . أحدهما من الآخر

وكان القائد بورجوين يتلهب شوقاً لوصول كلنتن بالجهاز والامداد . وكان يجب أن يكون الآن في البني . ولكن رسولا



ميدان سراتوغا

جاء من قبله يخبر انه لقي في طريقه من الصعاب ما لم يكن في الحسبان وان أمامه حصنين اميركيين ، يحاول فتحهما ، ثم يستأنف سيره . فأرسل بورجوين يحثه على الاسراع في فتح الحصنين والقدوم اليه .

وقد بدأ الهنود ينسحبون من الحملة . وهبط عدد رجالها الى نحو ستة آلاف

ترتيب المعركة الفاصلة

وضع بورجوين جناحه الايمن غربي نهر هدصن ، على زاوية قائمة مع النهر . وحصنه بخنادق ، وشبكة من الحفر الى الجانبين . وكان الاميركان يزدادون بما يصلهم من المدد كل يوم . فأتاهم من نيو انجلاند ٢٠٠٠ في ٢٩ سبتمبر . وأتم الجنرال البولاندي كسيوكو تحصيناتهم . وكان يقود جناحهم الايمن الجنرال لنكلن . واذ كان هذا الجناح أمنع من أن يؤخذ ، وجه القائد بورجوين همه لمهاجمة الجناح الايسر ، بالف وخمسمائة محارب وستة مدافع مختلفة العيار . وصحبه في هذا الهجوم الجنرالان فيلبس وفريزر ، وذلك في ٧ اكتوبر

وكان كتابه قد وصل الجنرال كلنتن في ٥ اكتوبر ، وفاز باخذ الحصنين في ٦ منه . وكسر البوارج الاميركية في النهر ، وأعد سفن نقل لامداد بورجوين ، حسب التعليمات الواردة اليه من القائد العام . وهو الآن على بعد ١٥٠ ميلا منه . وساق أمامه طليعة مؤلفة من ١٧٠٠ جندي . وهم الآن على ٤٠ ميلا من البني . ولكن كل هذه الاخبار مجهولة عند بورجوين . ولو فاز في سراتوغا لاتصل بالطليعة وعرف كل شيء ، والتقى بعدها بالجنرال كلنتن ، وفاز نهائياً . ولكن قدر فكان

قدنا بورجوين ، بالالف وخمسمائة نفر ، من صفوف الجنرال جايتس الاميركي . وصار منها على ثلاثة أرباع الميل . ونظم هجومه

وسلم النظاميين منهم للميجر أوكلاند ، والمدفعيين للميجر وليمس .
وكان معه في القلب جنود المان من « هس » بقيادة الجنرال فريزر
فلما علم الجنرال جايتس ان القائد الانجليزي قادم اليه أبت مروءته
الا أن يكون هو البادىء بالهجوم . فنظم صفاً بقيادة الجنرال پور ،
والجنرال ليونارد . وساقه على ميسرة الانجليز . وأرسل الجنرال
مورغان بألف وخمسمائة للاحاطة بميسرتهم

وفي الحال امتد القتال على طول الخط ، وضغط الجنرال مورغان
على اللورد بلكارس والجنرال فريزر ضغطاً شديداً . وتقدمت
وحدات عديدة الى الامام ، للاحاطة بجناح الانجليز الايمن. فتراجع
الانجليز ، ورتبوا أنفسهم في خط مائل يتصل بالنهر، لحماية ميسرتهم
وصد هجومهم بقيادة مورغان ، ولولا ذلك لفصلوا عن اخوانهم

وحمي وطيس القتال جداً . واستبسل الجنود في الجانبين .
وانتزع الاميركان من الانجليز مدفعاً وجهوه اليهم . وأسروا الميجر
أوكلاند والميجر وليمس فتعزز موقفهم بهذا الفوز . ولكن قلب الخط
الانجليزي ما زال ثابتاً

وكان الجنرال أرنولد قد تنازع مع الجنرال جايتس ، بسبب
معركة ١٩ سبتمبر ، فجرده جايتس من القيادة في بدء المعركة .
ولكنه الآن ، وقد بلغ القتال أشده ، قام بعمل خارق . فامتطى
صهوة جواده ، وأرخى له العنان الى الجبهة . وجعل يثير حماسة
الجنود . فأتم بذلك عملاً حربياً ، قد تعجز فصيلة كاملة عن اتمامه

وأبدى الانجليز من البراعة ورابطة الجأش والبسالة ما لا مزيد
عليه . ولا سيما الجنرال فريزر ، فانه أعاد تنظيم جنوده ، وبث فيهم

روح الحماسة والثقة . وكان يتقدمهم مشجعاً ، بملابسه الرسمية . وبذلك كان معرَّضاً لرصاص الاعداء ، لأنهم عرفوه بملابسه . وعبثاً ألحَّ عليه القائد بورجوين ان ينسحب من مواقف الخطر ، لان سلامته ضرورية لنجاح الحملة ، واذا سقط فشلت فشلاً تاماً . فأجاب انه يعتبر الواجب العسكري أقدس من سلامته . ولم ينسحب ولا غيَّر ملابسه . فسدد رماة الاميركان المرمى اليه فاصابوه ، ووقع جريحاً ، فحملوه الى خيمة الجرَّاح . واضطرت الجنود الانجليزية أن تتراجع . وانتثر عقد النظام في ميسرتها وقلبها ، ولكن مشاتها صدوا هجوم الاميركان . وبذلك تمكنت من الانسحاب دون كارثة إلا أنها تركت في الميدان ستة مدافع ، وعدداً من الجرحى وظلت مدافع الانجليز تطلق نيرانها على الاميركان حتى فني رجالها . وبعد ذلك غنمها الاميركان

انكسر الصف الذي قاده بورجوين ، ولكن المعركة لم تنته . لان الاميركان واصلوا تقدمهم ، وهجموا على الانجليز في محاتهم . ولا سيما الجنرال أرنولد . فانه قاد هجوماً قوياً على موقع بلكارس الحصين ، فثبت له الانجليز ، وخيم الظلام . فاقتحم أرنولد موقع بلكارس تصحبه جماعة من الفدائيين . فجرح في رجله جرحاً أوجب سحبه من الميدان

وخضع آسفاً شديد الاسف لهذا الحكم الاضطراري على ان جنوده ظلوا يقاتلون . وظل الانجليز يدافعون ، وأخيراً ارتد الاميركان عن مواقع الانجليز ، دون أن يفوزوا منهم بطائل . على أن هجوم الاميركان في غير هذا الموقع كان اكثر نجاحاً . فاخترقوا شبكة من

الحواجز والخنادق الالمانية . فجاد الالمان بأرواحهم في الدفاع وقتل قائدهم بريمن . وغنم الاميركان منهم كثيراً من الذخائر ، كانوا غاية في الاحتياج اليها . ولما حلوا تلك النقطة أرغموا جناح الانجليز على الانسحاب . وتعقبوهم ، يضربون ساقتهم . ولكي يتخلص القائد بورجوين من كارثة كبيرة ، غيّر موقعه ليلا ، فنقل جنوده بحذق خارق ، الى هضبة تشرف على نهر هدصن . ولكن القائد جايتس كان أعقل من أن يجود بأرواح جنوده عبثاً . فلم يهجم على الانجليز بل طوّقهم حتى يرغمهم الجوع على التسليم

وأرسل بورجوين كتاباً في ١٣ اكتوبر يسأل القائد جايتس المخابرة لانهاء القتال . فرد عليه هذا بوجوب التسليم بدون قيد ولا شرط . فاجابه ان ذلك غير ممكن بالنظر الى حالة الجنود النفسية . وطال الاخذ والرد بينهما . وأخيراً اتفقا على أن يعبر الانجليز نهر هدصن الى الضفة الشرقية . وهناك يطرحون سلاحهم بأمر قائدهم ، بورجوين ، ثم يصير نقلهم الى انجلترا ، متعهدين بعدم الرجوع الى هذا الميدان ، حتى تنتهي الحرب بين الاميركان وبين انجلترا

فعبروا النهر ، وسلموا ، وأسرهم الاميركان ، ولكنهم لاسباب لا داعي لشرحها هنا ، لم يرسلوهم الى انجلترا كما وعدوهم . وفاز الاميركان في هذه المعركة أعظم فوز

حكاية اوكلاند وزوجته

كان الميجر اوكلاند ضابطاً مستكمل الاوصاف ، وهو من الجنود النظامية ، وقد صحبته زوجته الى كندا سنة ١٧٧٦ . وكانت شديدة

الكلف به . فلازمته في كل المعارك التي خاضها . وكانت الى جانب سريره كلما جرح أو مرض . فمرّضته في شمبلي على نهر سورال ، في كوخ حقير ، وكذلك لما جرح في معركة هبردتن ، في فرمونت . فاسرعت من منتريال اليه في هنسبورو . ومن ثم قررت أن تصحبه ، بلا انفصال حتى الموت ، وكاد الزوجان يفقدان حياتهما بكارثة حدثت قبيل عبورهما نهر هدصن . اذ شبت النار في خيمتهما ، وكادت تقضي عليهما

وفي خلال معارك ٧ الجاري شغل زوجها بالقتال كل النهار . واضطرت هي ، وبعض النســاء ، أن يبقين بين جثث القتلى والجرحى ، في ليلة مرعبة ، لما اضطر بورجوين الى الانسحاب ليلاً ، على ما سبق بيانه . ونزعت كل الخيام ، وكاد لا يبقى لهن ما يظللهن . وجرح اوكلاند ، وسقط أسيراً بيد الاميركان ، وقد اجتازت حياته مأزقاً شديد الخطر . وكاد يقتل بيد فتى أميركي لولا مرور الجنرال ولـكنسن مساعد القائد الاميركي العام ، فاستغاث به اوكلاند ، وهو تحت سنكة ذلك الفتى . فاغاثه ولـكنسن وانقذ حياته . وحملوه الى محلة الاميركان ، حيث ضمدوا جراحه ، واعتنوا به

ولما بلغ زوجته انه جريح أسير ذعرت ، وهبّت للالتحاق به لتخدمه وتسند قلبه . وقد ايدتها في رغبتها هذه صديقتها البارونة ، زوجة الجنرال رايديسيل . قائد الهسيين المار ذكره . فارسلت التماساً للجنرال بورجوين في ٩ اكتوبر ، تسأله الاذن في أن تتبع زوجها لتخدمه . قال الجنرال بورجوين « ومع اني موقن ان الصبر والثبات يوجدان في أعلى درجاتهما ، كغيرهما من الفضائل ، في أشد الاحوال

معاكسة ، فقد أدهشني طلب مسز اوكلاند ، أن تتبع زوجها . وهي في حال تستدعي الراحة ، بعد متاعب وسهر ومخاوف ، وجوع ، معرّضة لكل أنواع المخاطر فلاحت لي همة كهذه خارقة الطور البشري . ولم يكن عندي ، حتى ولا كاس خمر اسند به قلبها . وكل ما أمكنني أن أعمله لها ، هو انني أعطيتها قارباً مكشوفاً ، وكتبت لها على ورقة وسخة مبلالة الكلمات الآتية للجنرال جايتس »

« سيدي

« ان السيدة هريت اوكلاند ، شريفة الآل والخصال ، وهي تحت تأثير أشد عوامل الحنان والامانة الزوجية ، جزعة على زوجها الجريح الاسير عندكم . وقد ألحت عليّ أن أسمح لها بالتوجه اليه . فتعذر عليّ رفض طلبها . فسأودعها عنايتكم . ومهما يكن من أمر موقفي أمامكم ، فلا أقدر الا أن أحترم رعاية السيدات . ولا سيما هذه السيدة الراقية ، وحالها الداعية للشعور ، ولا حاجة الى الشهادة فان التفاتكم اليها يجعلني غاية في الممنونية.

خادمكم المطيع

ج . بورجوين

فركبت القارب ، وعبرت هدصن ، الفاصل بين الجيشين ، يصحبها القس برودنل ، وساره بولارد ، وخادمتها ، وخادم زوجها ، وهو مجروح ، اذ كان يفتش على سيده ليلاً في الميدان . وأصابتهم عاصفة في وسط النهر ، كادت تهلكهم . وصبت عليهم الامطار الغزيرة سيولها . فعرقلت سيرهم ، وبللتهم . فلم يصلوا الضفة الثانية الا وقد خيم الظلام الحالك

فسمع الحارس الاميركي حركة المجاذيف في النهر . وصاح بهم الصيحة المعروفة . فراعه أن سمع صوت سيدة لطيف في جنح الظلام في منطقة حرب . ولم يجرؤ على الدنو منهم ، حذار المكيدة . فسأل رفيقه أن يصحبه للوقوف على واقعة الحال . ولما عرف من هم ، لم يأذن لهم في الصعود الى الشط ، حتى استأذن الميجر ديربورن . فطيب هذا خاطر مسز اوكلاند . مؤكداً لها ان زوجها العزيز سليم مصون

ولقيت في صباح اليوم التالي من القائد العام ، حناناً ابوياً . وأرسلها حالا الى خيمة زوجها . فأقامت تخدمه حتى نقل الى البني . وهي نموذج السيدات الانجليزيات في الشجاعة والامانة الزوجية

الحوادث التالية

سنة ١٧٨١ : تسليم القائد كورنوالس والجيش الانجليزي لجورج واشنطون

سنة ١٧٨٢ : فشل الفرنسيين والاسبانيين في حصار جبل طارق

« ١٧٨٣ : نهاية حرب الاستقلال الاميركي . واعتراف انجلترا باستقلال الاميركان

سنة ١٧٨٨ : طلائع الثورة الفرنسية

« ١٧٨٩ : انفجار الثورة في باريس . ودك سجن الباستيل . وابتداء الحوادث الخارقة في فرنسا

سنة ١٧٩٣ : إعدام لويس السادس عشر . اعلان أسبانيا وانجلترا الحرب على فرنسا . قسمة بولاندا نهائياً بين روسيا وبروسيا والنمسا

سنة ١٧٩٥ : فوز الجيش الفرنسي على هولاندا بقيادة بيشاجرو
« ١٧٩٦ : تعيين نابليون بونابارت قائداً للجيش الفرنسي في ايطاليا

سنة ١٧٩٧ : انتصارات الفرنسيين في هولاندا وأوستريا
« ١٧٩٨ : غزو مصر . انكسار الاسطول الفرنسي في أبي قير . ثورة ارلندا
« ١٧٩٩ : استئناف الحرب بين فرنسا وأوستريا . مساعدة روسيا لاوستريا . تتابع انكسار الفرنسيين في إيطاليا

سنة ١٨٠٠ : عبور نابليون جبال الالب ، وكسره النمسويين في مارنجو

سنة ١٨٠١ : معركة كوبنهاغن
« ١٨٠٢ : صلح اميان
« ١٨٠٤ : تنصيب نابليون امبراطوراً على فرنسا
« ١٨٠٥ : استعداد نابليون العظيم لغزو انجلترا . واستئناف الحرب بين فرنسا وبين النمسا وبروسيا

الرابعة عشرة

معركة طرف الغار

سنة ١٨٠٥

لقد هز نابليون أوربا ، وزعزع اطمئنانها ، وهدد دول الارض بالانقلاب . وكان ألدّ أعدائه الانجليز ، لانهم الصخرة التي بها يصطدم كل قوي في أوربا . فكان همه الوحيد تمزيق امبراطوريتهم كما كان ذلك هم غليوم الثاني ، وقياصرة الروس . فغزا مصر سنة ١٧٩٨ قصد قطع مواصلاتها بالهند . وكان يحلم بتقليد الاسكندر المكدوني في غزو الهند . ولذلك عمل صورة تمثله راكباً فيلاً وداخلا هندستان ظافراً

فأرسلت انجلترا في اثره الاميرال نلسن ، فحطم أساطيله في أبي قير قرب الاسكندرية ، ثم تعقبه الى سورية ، ورده عن عكا ، وأرغمه على الخروج من مصر . فنقم على انجلترا أعظم نقمة . ولذلك باع ولاية لويزيانا الجميلة ، على نهر مسيسبي ، للولايات المتحدة ، بمبلغ ١٥٠٠٠٠٠٠ دولار اميركي ، وجعل ينفق ثمنها على معدات حملة على انجلترا ، وينشيء سفناً نهرية لينقل بها الجنود الفرنسية الى لندن

وكان رئيس وزارة انجلترا حينئذ وليم بت الصغير ، فعقد ضد نابليون عدة محالفات ، وأثار عليه حروباً أوربية شغلته حتى أسر

في وترلو . فكان لابد من معركة بحرية تتحطم بها بوارجه ، فيصبح عاجزاً عن غزو انجلترا ، والامبراطورية الانجليزية . وقد شبت تلك المعركة في طرف الغار

القوى المتحاربة

« طرف الغار » اسم لسان من الارض ، داخل في الاوقيانوس الاتلانتيكي في جنوب غربي أوربا ، خارج بوغاز جبل طارق دعيت تلك المعركة باسمه لانها شبت في مياهه

كان مع الاميرال « جونبرت كولنغ وود » الانجليزي ٣ بوارج حربية ، ترقب أساطيل فرنسا وأسبانيا في مرفأ قادس . وانضم اليه في ٢٢ أغسطس سنة ١٨٠٥ الرير اميرال بيكرتن ومعه ٤ بوارج . ووافاه الفيس اميرال السر روبرت كالدر في ٣٠ أغسطس ومعه ١٩ بارجة . وأتاه اثنتان اخريان ، ثم أتاه نلسن ومعه ست بوارج فصار المجموع ٣٤ بارجة

وكان في أساطيل الحليفتين ، يومئذ ، فرنسا وأسبانيا ، ٢٩ بارجة فرنسية بقيادة الاميرال ڤيلانوف ، وخمس بوارج اسبانية بقيادة الاميرال القا الاسباني فالمجموع ٣٤ بارجة فيها اكثر من ٤٠٠٠ بحار . وكانت إبادة هذه البوارج أو فوزها موضوع العراك بين سياستي انجلترا ونابليون . وأرسل نابليون أوامره الى ڤيلانوف في ١٤ سبتمبر ان يخرج بأسطوله الى عرض البحر في أول فرصة مناسبة . فتنضم اليه سبع بوارج أخرى راسية في قرطجنة ويذهب مجموع هذه الاساطيل الى مدينة نابلي الايطالية لتقوية حاميتها .

وأمرها ان تصلي المعركة كل أسطول انجليزي تصادفه في طريقها ، اذا كانت أقوى منه

ورأى نابليون أن ڤيلانوف غير كفء لمنصبه الخطير ، فقرر سحب يده ، وتسليم القيادة للاميرال روزلي . فساء ذلك ڤيلانوف ، ورغب في الاسراع بالخروج من قادس قبل وصوله

الاميرال نلسن

انجبت انجلترا كثيرين من كبار القواد ، والابطال ، ولكن لا أحد منهم كان محبوباً من الامة اكثر من الاميرال نلسن وقد رأيت له في ميدان « ترافلغار » في لندن ، أعلى الانصاب وأفخمها ، فكأنهم يريدون أن يضعوا تمثاله في القمر ، وذلك مظهر قدرهم رجالهم ، ومظهر أهمية العمل الذي قام به في معركة طرف الغار ، حيث حل قبضة نابليون الحديدية ، القابضة على سوط يهدد به انجلترا

وُلد الاميرال هوراسيو نلسن في ٢٩ سبتمبر سنة ١٧٥٨ في ليفربول وكان خاله « موريس سكلنغ » بحاراً ، فخدم هوراسيو تحت يده منذ صباه . وعنه أخذ فن البحرية ، وظل بحاراً كل حياته . ورافق الاميرال هيد بارك الى بحر البلطيك . وفاز على أسطول اسوج في كوبنهاغن . والاسطول الفرنساوي في الاسكندرية . واخيراً عين أميرالا على أساطيل انجلترا في البحر المتوسط ، وانيط به كسر أو سحق الاسطولين الفرنساوي والاسباني

فاجتمع باللورد جتام ، رئيس وزارة انجلترا يومئذ ، وقررا نظام الاسطول وموظفيه ، ثم برح لندن الى بورتسموث . وفي ١٥ سبتمبر برح بورسموث الى قادس ، فوصلها في ٢٨ منه ، وكان معه

٦ بوارج نجدة للاسطول ، وأمر الاميرال كوانغ وود ألا يضرب
له مدافع سلام حين وصوله ، ليظل أمر وصوله مكتوماً عن الاعداء
وأرسل أوامره الى جبل طارق بمنع الصحف عن نشر خبر قدومه .



الاميرال نلسن

ولكن ضباط الاسطول فرحوا بقدومه فرحاً خارقاً . وكانوا وجميع
الانجليز في كل الدنيا ، يقدرون المهمة الموكلة لعنايته ، ويعلقون به
أمل الفوز . وكان هو يقول ويكتب ما يفيد توقعه الفوز والموت معاً
وعقد ڤيلانوف مؤتمراً بحرياً ، بحث في أمر الاسطولين ، فقرر

ألا يهاجم الاسطول الانجليزي الا اذا كانت نسبته اليه ٤ : ٣ لان البوارج الانجليزية أقوى وأكبر من البوارج الفرنسية والاسبانية

ودعي الاميرال كالدر الى انجلترا للمحاكمة ، أمام مجلس حربي لتقصيره في مصادمة أساطيل الحلفاء في ٢٢ يوليو . فذهب على بارجة وذهب الاميرال لويس الى جبل طارق بست بوارج ، لجلب المؤن والماء ، ولم يرجع الا بعد نهاية المعركة . فيكون نلسن قد خاض المعركة بسبع وعشرين بارجة ضد ٣٤ .

طلائع المعركة

اجتمع الاميرال نلسن ليلة ٩ اكتوبر ، بالاميرال كولنغ وود ، وأخبره بالخطة التي رسمها للمعركة ، قال : ربما حال الظلام والضباب دون ظهور الاوامر البحرية . فليكن معلوماً عندك وعند ربابنة البوارج جميعاً ، ان ظهور أساطيل الاعداء هو دليل الشروع في الحرب . وخطتنا أن نقطع ٣ أو ٤ بوارج من مؤخرة أساطيل العدو ، ثم نخترق قلب الاسطول كله . والامر متروك لحرية كل ربان في كيفية العمل وقت الاشتباك ، ولكن حيث يمكن مهاجمة بوارج العدو من جانبها فهو المطلوب . وأقام نلسن رقباء ينبئونه بحركات أساطيل الاعداء لا سيما في خروجها من مرفأ قادس

وفي ١٩ اكتوبر وردت اشارة للاميرال نلسن من البارجة « مارس » وهي أقرب بوارج انجلترا الى أساطيل الاعداء ، تفيد أن العدو يهمّ بالخروج . فرد عليهم نلسن قائلاً : « راقبوه »

وأمر الاساطيل الانجليزية أن تمتد في جهة الجنوب الشرقي . وظهرت بوارج الاعداء الساعة ٢ ب . ظ ، في عرض البحر . فراقبها

الاسطول الانكليزي كل الليل ، والمسافة بينهما ١٢ ميلاً . وفي صباح ٢٠ اكتوبر ، أشرفوا على مدخل البوغاز . فعطف نلسن شمالاً لملاقاتها . ووردت اليه اشارة ، قبيل الغروب أن العدو توجه غرباً ، ففهم أنهم يودون العودة الى قادس ، لأنهم رأوا الاسطول الانجليزي ، لذلك أمر بوارجه أن تتجنب الظهور

وفي صباح ٢١ اكتوبر رأى الرقيب عن سارية فكتوري أساطيل الاعداء في عرض البحر ومعهم ٣٣ بارجة ، منها ٧ ضخام من ذوات الابراج . ولما أشرقت الشمس أمر نلسن بالهجوم حسب الخطة المقررة

ودخل نلسن قمرته ، وكتب وصيته الاخيرة لانه كان يتوقع الموت ، وهي طويلة لا محل لها هنا ، وكتب صلاة سلم بها نفسه وأسطوله لعناية الله . وكانت البوارج الانجليزية تسير بنظام وأبهة شائقين ، حتى ان ڤيلانوف أميرال الاسطول الفرنسي لما رآها قال لمن حوله « أن بوارج تسير هذا السير لا يفوتها الظفر » . واذ علم ان بحارته غير اكفاء لمصادمة الانجليز ، أمرهم بالعودة الى قادس ، على انه قال لهم : اذا اشتبكنا بمعركة مع الاسطول الانجليزي فكل ربان حر في عمل ما تدعو اليه الضرورة

المعركة

بدأت معركة طرف الغار الساعة ١١ : ٥٠ وذلك باطلاق ٨ أو ٩ بوارج فرنسية النار على « فكتوري » ـ بارجة الاميرال نلسن ـ وكان قصد الفرنسيين بذلك أن يروا مرامي مدافعهم منها . فأمر الاميرال نلسن الربان بلاك وود أن يخبر جميع بحارة الاسطول ان

الاميرال يعتمد على جهودهم . ونشر عبارته الشهيرة وهي : « ان انجلترا تتوقع من كل رجل ان يؤدي واجبه »

وكانت بوارج الاعداء سائرة أزواجاً ، وفي بعض المواضع مثلث . وقد شهد الاميرال نلسن لبراعة الاميرال ڤيلانوف وحسن ادارته ، وانه عمل أفضل ما يمكنه في موقفه

وأسرع الاميرال نلسن ومساعده الاميرال وود ، لادراك بوارج العدو التي كانت تبغي الافلات منهم لتعود الى قادس : فتركا البوارج البطيئة وراءهم ، وهجما بالسريعة . وكانت أول بارجة انجليزية اطلقت النار على الاعداء ، هي البارجة « رويال سڤرنغ » المعقود لواؤها للاميرال كولنغ وود . فجاوبتها « سنتا حنـة » المعقود لواؤها للاميرال الفا الاسباني . وكان هذا في الصف وراء ڤيلانوف ، وذلك يوافق خطة نلسن ، أن يقطع ساقة بوارج العدو أولا . فبدأ بضرب الفا السائر في الساقة

وكان نلسن يرقب القتال عن ظهر بارجته ـ فكتوري ـ فقال لمن حوله : أترون كيف يحسن كولنغ وود العمل ؟ وكان الاميرال وود مسروراً لانه أول من تعمد بالنار، فقال لمن حوله : كم تظنون يدفع الاميرال نلسن لنقايضه الموقف ؟ . ووالى الفرنسيون اطلاق النار على « فكتوري » . ولما اخترقت القنبلة شراعها ، صوبوا عليها نيران عدة بوارج ، قاصدين تقطيع حبالها ، فامر الاميرال نلسن بمهاجمة « سنتي سيما ترينيداد »

وكان أول من سقط الى جانب الاميرال نلسن كاتبه «سكوت» ثم ثمانية بحارة . فامر نلسن أن يتفرق البحارة لئلا يهلكوا بالجملة .

ثم سقط الرصاص بين نلسن وهاردي ربان فكتوري ، واخترق سيور هذا ، ولمس رجله ، ولكنه لم يجرح . والى الا ن لم تطلق فكتوري ولا طلقاً وأحداً . وقد أصيب ٦٠ من بحارتها ، وتمزق شراعها . وفي الساعة ٤ : ١٢ فتحت مدافعها فوهاتها ، وصبت نيرانها الى الجانبين ، على سنتي سيما ترينيداد ، وعلى روديتابل. (بارجة الاميرال الفرنسي ، فيلانوف) ولما سكتت مدافع هذه ، أمر بالكف عن ضربها . ولكنه منها نال منيته ، اذ أصابته شظية قنبلة من مدافعها على قرص الساري ، حيث ينصب الفرنسيون عادة بعض المدافع فاصابت تفاحة البنود على كتفه ، وقصمت عموده الفقاري ، فسقط على الارض ، حيث كان كاتبه قد سقط منذ برهة والتفت هاردي فرأى ثلاثة بحارة يحملونه . فقال له الاميرال « لقد أردوني يا هاردي » . فاجابه ذلك « لا سمح الله » . قال نلسن « بلى فلقد قصم ظهري ولن أعيش » وكان ذلك الساعة ١ و ١٥. فحملوه الى القمرة . وفحص الجراح جرحه . وللحال عرف انه مميت ، ولكنه كتم ذلك الا عن هاردي والقسيس وبعض الاطباء وشعر نلسن ان لا قوة بشرية تفيده . فقال للجراح اذهب وعالج الذين فيهم رجاء ، واتركني . وغاية ما عملوه للاميرال ، التهوية فوق وجهه ، وسقيه شراب الليمون ، لتخفيف عطشه . وكان ، وهو أمام الموت ، يبدي شديد الرغبة في معرفة نتيجة المعركة . وكلما سمع البحارة يصيحون « هوراه » ، حين يأسرون احدى البوارج ، كان وجهه يطفح بشراً ، وطلب ان يرى هاردي ـ قبطان بارجته ـ بالحاح شديد. ولما تأخر عن المجيء ، لانه كان مشغولا بالقتال ، ظن

انه مقتول لحزن حزناً شديداً . ولم يسكن روعه حتى حضر هاردي ، وأفاده ان المعركة « في مصلحتنا » وقد عطلنا او اسرنا الى الآن احدى عشرة بارجة . ونحن على وشك أن نتبعها باربع او خمس أخر . فقال نلسن « حسن جداً ، ولكنني أتوقع أن نردي بعشرين بارجة »

ثم قال أنا مائت يا هاردي ، فتعال وقبلني . فركع هاردي وقبل خدّ الاميرال . ثم وقف دقيقة ، وعاد فركع وقبل جبينه . فقال الاميرال الحمد لله لقد أتممت واجبي لوطني . وظل يكرر هذه العبارة حتى فارق الحياة الساعة ٤:٣٠

وظلت البوارج الاسبانية تقاتل حتى قتل من بحارتها ٤٠٠ من كل « ارجونوتا » و « سنتي سيما » ، و ٣٥٠ من « سان خوان » . وقتل الاميرال الفا الاسباني . وأسر ڤيلانوف أميرال الاسطول الفرنسي ، وأخذوه الى لندن

وعطف الاسبانيون كثيراً على جرحى الانجليز ، وقدموا لهم أسرتهم . وكان مجموع خسارة الانجليز ١٥٠٠ . ولم يُعلم كم كانت خسارة الاعداء ، ولكنها كبيرة جداً . فقد خسروا ٢٠ بارجة غرقاً وأسراً ، وتعطل ١٠ بوارج . فلم يسلم منها سوى ٤ بوارج من ٣٤ . وغربت شمس ذلك النهار ، وغربت معها شمس حياة نلسن الاميرال العظيم ، وغربت شموس آمال نابليون في غزو انجلترا . وانفردت انجلترا بسيادة البحار فكانت قادرة أن تتعقب نابليون أنى ذهب

وطارت اخبار الفوز العظيم الى انجلترا ، وان الاميرال نلسن أحرزه بدمه . فكان فرح الامة بالفوز كحزنها على أميرالها المحبوب وللحال رقي أخوه الى رتبة ارل براتب ٦٠٠٠ جنيه . ودفعت الحكومة لكل من شقيقتيه ١٠٠٠٠ جنيه . ولما وصل التابوت الذي يضم رفاته الى لندن حطمه الشعب ، ووزعوا قطعه عليهم كأنه ذخيرة من ذخائر القديسين . ودفنوه في أشرف مدافنهم ، « دير وستمنستر » باحتفال عظيم . ويحسب المؤرخون معركة طرف الغار فريدة في أهميتها ، فائقة في نتائجها ، ولذلك كانت من أهم فواصل المعارك البحرية في كل العصور . وهي تخلد امجاد الاميرال نلسن والبحرية الانجليزية ، وكانت من جملة العوامل لتقليم أظافر نابليون ، ومقدمة لسقوطه ، لان من خسر البحرية فقد خسر كل شيء

الحوادث التالية

سنة ١٨٠٦ : حرب روسيا وفرنسا . انكسار البروسيين أمام نابليون في جينا

سنة ١٨٠٧ : معارك شرقي روسيا بين الفرنسيين والبروسيين

« ١٨٠٨ : قيام الاسبانيين على نابليون لانه ملك أخاه عليهم

« ١٨٠٩ : استئناف الحرب بين فرنسا والنمسا . معركة وجرام

« ١٨١٠ : زواج نابليون بالارشيدوقة ماريا لويزا . ضم هولاندا الى فرنسا

سنة ١٨١٢ : محاربة انجلترا اميركا . حملة نابليون على موسكو . تأخر نابليون

سنة ١٨١٣ : قيام بروسيا والنمسا ضد فرنسا . طرد الفرنسيين من جرمانيا بعد معارك حامية

سنة ١٨١٤ : غزو الحلفاء فرنسا . تسليم باريس للحلفاء وارسال الحلفاء نابليون الى جزيرة البا . مؤتمر فينا

سنة ١٨١٥ : افلات نابليون من جزيرة البا ، وعودته الى فرنسا ، والتفاف الناس حوله فهرب لويس الثامن عشر

معركة وترلو

سنة ١٨١٥

نابليون بونابرت أشهر من أن يعرّف . وقد حارب دول أوربا عشرين سنة . وقد أمسكوه في سنة ١٨١٤ ، ونفوه الى البا . واجتمع نواب الدول في مؤتمر فينا الشهير ، لاعادة تنظيم أوربا . وفي ختام أعمال المجمع نهض تلران ، نائب فرنسا ، وأخبر الحضور ان نابليون هرب من البا ، وعاد الى فرنسا ، وانضم اليه الجنود والقواد ، وهو الآن امبراطور فرنسا ثانية . فبُهت الحضور هنيهة ، لما طرق سمعهم ذلك الخبر غير المنتظر ، ثم اندفعوا جميعهم في الضحك بصورة هستيرية . ثم قرروا محاربته ، وفي الحال عقدت محالفة بين انجلترا وبروسيا والنمسا . وانضم اليها غيرهم بعدئذ ، وعزموا أن يحاربوا نابليون حتى يقصوه عن فرنسا

وكان نائب انجلترا في المؤتمر دوك ولنجتن القائد الانجليزي الشهير . فسألوه رأيه في كيفية الحرب فقال ما خلاصته : يؤلف الحلفاء ثلاثة جيوش يدعونها جيش الرين الادنى ، وجيش الرين الاوسط ، وجيش الرين الاعلى . ففي الاول جيوش الدول الغربية ولا سيما بروسيا وانجلترا . وهذه يجب أن تبدأ الحرب حالا .

وجيوش أواسط الرين هي جيوش بافاريا والنمسا ، وهذه ستحشد بعد الاولى. وأما جيوش أعالي الرين فهي عبارة عن جيوش روسيا ، التي يتأخر وصولها لبعد الشقة وصعوبة المواصلات . ثم تفرق أعضاء المؤتمر ، وباشرت الدول حشد الجيوش ، وباشر نابليون حشد جيوشه كذلك . وكان ذلك في ٥ مارس سنة ١٨١٥ . وفي ١٣ مارس وقعت الدول السبع : النمسا ، واسبانيا ، وانجلترا ، وبورتوغال ، وبروسيا ، وأسوج ، قراراً بتجريم نابليون

مقدمات المعركة : الجيوش

وصل بلجيكا في شهر مايو ثلاثة جيوش ، هي الانجليزي والبروسي والفرنسي

وكان قائد الاول دوك ولنجتن ، والثاني المارشال بلوخر ، والثالث نابليون

وصل الاول بروكسل ، والثاني ضفاف السوم والسمبر ، والثالث حول مدينة ليل الفرنسية . وكان نابليون يرمي الى فصل الجيشين المتحالفين . ثم اتخاذ خطة الدفاع امام احدهما ومهاجمة الآخر حتى يفنيه ، ثم الاجهاز على الثاني . ولم تكن جيوش روسيا والنمسا المنتظرة تشغل قلبه كثيراً . وكان يؤمل أن تنضم بلجيكا اليه ، فتساعده على طرد العدو من بلادها . هذه كانت احلام نابليون

وكان مع نابليون خمسة فيالق

الاول : بقيادة الكونت دارلون . وموقعه حول ليل

الثاني : بقيادة الكونت رايل وموقعه في فلانسين الى يمين الاول

الثالث : بقيادة الكونت ڤاندام في مزيير
الرابع : بقيادة الكونت جيرارد في نواحي متز
الخامس : بقيادة الكونت لوبون لاون . يضاف الى ذلك فرق الخيالة بقيادة كروشي، والحرس الامبراطوري القديم والجديد

وجاء نابليون بلجيكا في ١٤ يونيو ، واجتمع بالمارشال ناي ، وسلمه قيادة جناحه الايسر العامة ، تجاه الجيش الانجليزي ، واحتفظ لنفسه بقيادة قلبه وجناحه الايمن ، ضد البروسيين . وكان مع بلوخر من الجنود ٨٣٤١٧ ، ومع ولنجتن ٦٠٠٠٠ ، ومع نابليون اكثر من ١٠٦٠٠٠

معركة كواتربراس



خريطة معركة وترلو

بدأت الحرب بمهاجمة الجيش الفرنسي الجيش الانجليزي في

كواتر براس . فتقدم المارشال ناي بسبعة عشر الفاً و ٢٠٠٠ خيال وتبعه كلرمن – دوك فالمي – بخمسة آلاف خيـال ، فصار مجموع الجيش الفرنسي ٢٣٠٠٠ . ونصب ناي مدفعيته على قمة جاميا نكور المتحكمة في الميدان . وقابله السر توماس بكتن ، وديوك برنسويك. وهذا الثاني قتل في المعركة . ولما بدأ القتال انسحب الهولانديون من الصفوف الانجليزية . واستمر القتال كل النهار . وكان الفوز حليف الفرنسيين ، ولكنه في المساء تحول الى جانب الانجليز . وانسحب الفرنسيون امامهم الى فرازن . فهاجم ولنجتن ليـلا هضبة جاميا نكور ، وانتزعها من ايدي الفرنسيين ، على امل اتخاذ خطة الهجوم غداً

معركة ليني

كان مع بلوخر ٨٣٤١٧ جندياً و ٢٢٤ مدفعاً ، عدا فيلق المارشال بولو ، القادم على الطريق وفيه ٢٥٠٠٠ . فشبت الحرب بين بلوخر وبين نابوليون . ولست أريد ان أطيل في شرحها ، لأنها ثانوية وتمهيدية للمعركة الفاصلة . والذي أقوله هنـا ان البروسيين انسحبوا بنظام ، والتقوا بفيلق المارشال بولو ، فزادت قوتهم كثيراً عما خسروا في معركة ليني . وحسبهم نابوليون مكسورين ومنهزمين بدون نظام فتحول عنهم لمهاجمة ولنجتن ، كما كان قد رسم . وهنـا تحول مجرى الحرب ، وبدلا من ان يكون ولنجتن نجدة لبلوخر صار هذا نجدة لذاك

وكان بلوخر قد حل « ڤوار » فلما عرف ولنجتن ان بلوخر تأخر الى ڤوار ، انسحب هو من ميدان كواتر براس الى سان

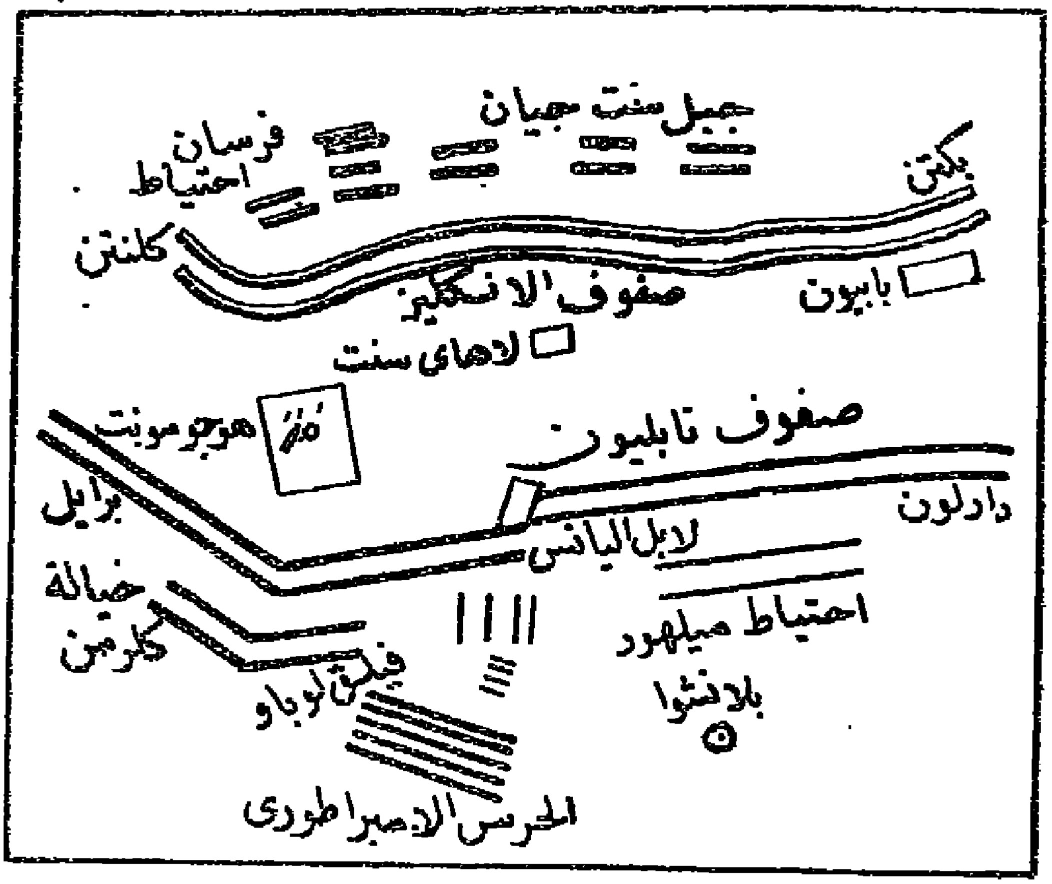
جوان قرب « وترلو » . وأرسل بلوخر يخبر انه يحتاج الى ٢٥٠٠٠ فقط فيحارب نابوليون غير هياب . وبناءً على اعتقاد نابليون ان جيش بلوخر ضعف أرسل عليه كروشي ومعه ٣٢٠٠٠ ، وساق بقية جيشه على ولنجتن لسحقه . ولكن بلوخر ترك فيلقاً معززاً بقيادة ثلمن ، أمام كروشي ، وجاء ببقية الجيش لنجدة ولنجتن في وترلو . وتوقفت نتيجة الحرب على ادراك بلوخر ولنجتن قبل انكساره أمام نابوليون . وكان المأمول ان يصل الساعة ٣. ب.ظ ولكن بسبب رداءة الطرقات الناشئة عن أمطار البارحة تأخر وصوله الى الساعة ½ ٥

فكان مصير أوربا معلقاً على ثبات .ولنجتن أمام هجمات نابوليون هاتين الساعتين والنصف . ولولا همة بلوخر العالية ونظره الثاقب ، لما وصل ذلك اليوم ، ولكان الحلفاء خسروا المعركة

أوصاف ميدان وترلو

موقع الميدان جنوبي بروكسل عاصمة بلجيكا . وهو عبارة عن وهدة بين سلسلتي هضاب طوله نحو ثلاثة أميال ، وعرضه يختلف بين ضيق وعريض ، باختلاف المواقع . فحل الانجليز سلسلة الهضاب الشمالية ، والفرنسيون السلسلة الجنوبية ، والوادي يفصل بينهما ومركز المدفعيات على قمم الجانبين متحكمة في الوادي تحتها . وكان في جانب الانجليز قريتان وهما « سنت جان » و « لايل » تمر بهما الطريق من شارلروى الى بروكسل . والى يمينهم واد وقرية « مارك براين » والى يسارهم قريتا « بيلوت وسنت هياي » ووراءهم غابة « سوانيه » وأمامهم في المنحدرات والسفوح ، موقعان جديران

بالذكر . الاول أمام جناحهم الايمن وهو مزرعة « هوجومونت » فيها بعض الابنية وغابة اشجار . والثاني أمام قلبهم ، وهو مزرعة



ميدان معركة وترلو

« لاهاي سنت » وقد عزز ولنجتن هذين الموقعين بالمدافع والرجال . واذا فرضنا ان الفرنسيين احتلوهما كانوا تحت رحمة مدافع الانجليز الموضوعة فوقهما علي التلال : أما الفرنسيون فكان في مؤخرتهم قرية بلانشوا

فضع كل ذلك في فكرك لفهم حركات المعركة

قوات الجانبين

كان مع دوك ولنجتن ٤٩٩٠٨ من المشاة و ١٢٤٠٢ من

الفرسان ، و ٥٦٤٥ من رجال المدفعية ، والمجموع ٦٧٦٥٥ ، معهم ١٥٦ مدفعاً . من هذا المجموع ٢٤٠٠٠ فقط من الانجليز . وكان مع نابليون ٤٨٩٥٠ من المشاة ، و ١٥٧٦٥ من الفرسان و ٧٢٣٢ من رجال المدفعية ، فالمجموع ٧١٩٤٧ معهم ٢٢٤ مدفعاً . وكلهم فرنسيون . عدا هؤلاء كان مع كروشي ٣٢٠٠٠ ، ضد البروسيين بقيادة « ألمن » في فوار

ورتب دوك ولنجتن جيوشه في صفين ، صف وراء صف . يمتد الصف الاول على قمم سلسلة الهضاب ، الممتدة من الشرق الى الغرب ، والثاني وراءه . ووراء الصفين كتائب فرسان احتياطية . وكان جناحه الايمن بقيادة الجنرال كلنتن ، والقلب بقيادة السر كوك ، وفيه الحرس الملكي . والجناح الايسر بقيادة السر توماس بكتن . ومع الفرسان جيش برنسويك الاحتياطي . وكان في معية ولنجتن البارون موفلنغ البروسي ، واللورد اركز برج قائد الفرسان العام ، واللورد هل ، وبرنس أورانج ، والجنرال شاسيه .

ورتب الامبراطور نابليون جنوده ، في صفين - ففي الصف الامامي فيلقا دارلون وبرايل ، الاول في الجناح الايمن تجاه توماس بكتن ، والثاني في الجناح الايسر تجاه كلنتن ووراء الجناح الايمن ميلهود ، ووراء الثاني كلرمن . وبينهما الفيلق السادس بقيادة الجنرال لوباو . ووراء الخطين الجنود الاحتياطية ، وفيها الحرس الامبراطوري ، وهو أقسام يطول بي شرحها . وكان في معية الامبراطور الجنرال سومير ، والمارشال ناي ، بصفة ملازمين

وكان الجيشان متأهبين للقتال منذ الصباح ، ينتظرون الاشارة .

ولكنها تأخرت بسبب الوحول الناشئة عن امطار البارحة ، كما سبقت الاشارة . وفي الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثلاثين بدأت المعركة التي عليها يتوقف مصير أوربا

بدأ نابليون القتال بارسال صف قوي للهجوم على « هوجومونت » بقيادة اخيه جيروم . وكان الفرنسيون يوالون الهجوم صفاً بعد صف ، وفي كل مرة كان الانجليز يردونهم بالفشل . ظل القتال على هذه المزرعة كل النهار دون نتيجة . ومدافع الجانبين تطلق عليها بالتناوب ، فحين يهجم الفرنسيون تمطرهم المدفعية الانجليزية نيرانها ، وحين يطاردهم الانجليز تمطرهم المدفعية الفرنسية النار تمهيداً لهجوم ثان . فتصوَّر خسارة الهاجمين كل النهار

ولما بدأ القتال عمّ اطلاق المدافع خط القتال على طوله . وفي الساعة الواحدة بعد الظهر أرسل الامبراطور قوة كبيرة بقيادة المارشال ناي ، معها ٧٤ مدفعاً ، لمهاجمة قلب الجيش الانجليزي وميسرته . وكان في هذه القوة أربعة صفوف فيها ١٨٠٠٠ من المشاة ، عدا الخيالة . وكان غرض نابليون قطع صلات ولنجتن ببلوخر ، والحيلولة دون انسحاب الانجليز الى بروكسل . وانتقى نابليون لهذا الهجوم زهرة جيوشه . فانحدروا عن هضابهم بنظام وأبهة ، واثقين بالفوز ، تحميهم المدافع المنصوبة على القمم وراءهم . وحالما انحدروا عن القمم فتحت المدافع الاربعة والسبعون أفواهها ، وصبت نيرانها على الارض أمامهم ، لتمنع تعرُّض الانجليز لهم . فذهب الصف الواحد الى ميسرة الانجليز ، والثلاثة الاخرى الى القلب ، وما يلاصقه من الميسرة . وحينما دنت الصفوف

الافرنسية انسحبت الجنود الهولاندية والباجيكية أمامها . فسد مسدّها ، حالاً ، فيلق بكتن الانجليزي ، فلم ينشأ عن ذلك أمر ذو شأن . ولكي يتمكن الجنرال بكتن من صد هجوم المارشال ناي رتب جنوده في صفين ضيقين وطويلين جداً ، وساقهم في كرة على المهاجمين ، فصاح الانجليز « هوراه » وانقضوا على الفرنسيين كالنسور ، والجنرال بكتن في مقدمتهم ، فاصابه طلق ارداه قتيلا . وساعدت فرسان الجنرال بونسونبي مشاة الجنرال بكتن ، فردوا الفرنسيين مشوشين ، واسروا منهم الفين ، وغنموا علمين . وظلت فرسان بونسونبي تطاردهم ، حتى وصلت المدفعية ، فعطلوها وقتلوا رجالها . وأصاب الصف الذي هاجم ميسرة الانجليز ما أصاب الصفوف الثلاثة التي هاجمت القلب . وهذا اول فشل اصاب نابليون في هذه المعركة . فضعف جناحه الايمن وحبطت خطته . وفي نفس الوقت ما زالت « هوجومونت » ترد هجمات الفرنسيين المتوالية . فرأى نابليون ، بأسف شديد ، نخبة رجاله تتساقط أمامه ، سقوط اوراق الخريف . وقد راعه ان ظهرت في الافق الشرقي طلائع بلوخر ، ولكنه اراد ان يشجع رجاله ، فقال لهم انها طلائع كروشي قادمة لنجدتهم ، ولم يكن يجهل انها جنود بلوخر . اما كروشي فكان مشتبكا في القتال امام ثمرن ، على بعد ١٢ ميلا من نابليون ، وقد تمادى في مد صفه الى الشرق ، حتى صار يتعذر عليه انجاده ، وقد فصلت بينهما جيوش بلوخر الجرارة وهددت ميمنة نابليون

واذا كان نابليون قد عجز عن مقاومة ولنجتن وحده فماذا يكون

حاله الآن وقد انضم اليه بلوخر باكثر من خمسين الفاً ؟

فادرك نابليون ان الوقت اثمن من ان يضاع ، اذ كانت جنود بلوخر قد ابتدأت تضغط على ميمنته . ولا يجهل القارىء ان نابليون بونابرت اعظم من انجبت فرنسا من القواد في كل العصور فابرز وسيلتين للفوز على خصمه العنيد

الوسيلة الاولى : انه وجه فيلق لوباو ، المشاة ، لملاقاة بلوخر ، وصحبهم بكوكبات من الخيالة . فنجحوا في صد طلائع البروسيين ، ولكنهم لما وصلت جيوشهم الدافقة نكصوا امامها . واتخذ الحلفاء خطة حازمة ، ليس لمنع نابليون من الوصول الى بروكسل، بل ايضاً لقطع خط الرجعة عليه ، الى فرنسا ، وقرض جيشه كلياً ونهائياً . ولهذا السبب بذل نابليون اقصى جهده في الدفاع عن بلانشوا في مؤخرة جيوشه

الوسيلة الثانية : انه زاد اطلاق المدافع على جبهة ولنجتن ، فاحل بها خسارة كبيرة ، ولكنه لم يسحقها ، ولا زحزحها عن مواقفها قيد شبر . فجمع خيالته وارسلها على قلب ولنجتن مرة ثانية وارسل من ميسرته جنوداً جديدة على هوجومونت ولاهاي سنت

وحمي وطيس القتال

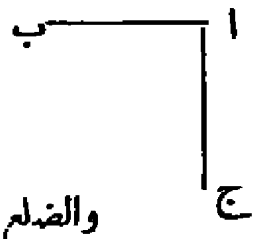
ووالت كتائب نابليون هجماتها

ورأى نابليون فرسانه تحصد حصداً بنيران الانجليز

وكلت سواعد الفرنسيين أمام ميسرة الانجليز ، وعجزت عن فصلهم عن بلوخر ، وفي ذلك مصرع نابليون . وأخيراً ، وقد دنا بلوخر ، استبسل الفرنسيون في هجومهم على ميسرة الانجليز ، عند

طريق شارلروى . وكان في تلك النقطة الفصائل الانجليزية ٣٠ و ٣٣ و ٦٩ و ٧٣ . فأحلوا بها خسارة عظيمة ، ولكن لم ينتج عن ذلك عمل فاصل

وشدّد نابليون هجماته على ميمنة ولنجتن فوق «هوجومونت» وزحزح الانجليز عن مواقفهم . فهتف الفرنسيون هتاف الظفر . ولكن ولنجتن بادر حالاً ، ونظم مشاته في شكل مربعات ، فتعذر على خيالة الفرنسيين اختراقها . ثم أعادوا الكرة ، فصُدّوا أيضاً . وكلما نكصوا مرة تلقفتهم مدافع الانجليز . فأفنت هذه الهجمات الخائبة فرسان نابليون . ولكن جناحه الايمن أحرز بعض الفوز ، أمام ميسرة ولنجتن ، فانتزعوا « لاهانت سنت » من الانجليز . ولكن جيش بلوخر وصل بأجمعه ، وأدرك حقيقة الموقف ، وفي الحال نظم جبهة ممتدة من الشمال الى الجنوب ، شرقي ميمنة نابليون . فصار جيش الامبراطور في شكل زاوية قائمة هكذا :



فالضلع ا ب تجاه الانجليز

والضلع ا ج تجاه البروسيين

تصرف ولنجتن

لما اشتد الضغط على ولنجتن ، قبيل وصول بلوخر ، أخذ يشدد سواعد رجاله . وكان يتنقل من مكان الى مكان ، ويلقي على مسامع الرجال عبارات حماسية . ولا يجهل القارىء ما لمثل هذه العبارات من فم القائد العام من التأثير في نفوس الجنود ، في مثل هذا الموقف

فكان يقول لهم : « يا رجالي اليوم يومكم . ماذا يقولون عنا في « انجلترا »؟ وكان حين ترتخي أيديهم يتقدم بنفسه للعمل . مثلا : طلب قائد أحد الفيالق منه مدداً، أو يأذن له بالانسحاب . فرد عليه أن ليس هنالك مدد ، وانه يجب أن يحفظ موقفه حتى يفنى آخر رجل في فيلقه . وسأله أركان حربه ما هي خطته ، حتى اذا أصابه سوء جروا عليها ، فأجابهم : « الخطة هي الثبات الى أن نفوز، أو يهلك آخر رجل في جيشنا »


ولنجتن

بمثل هذه العزيمة قهر ولنجتن نابليون ، وفاز الانجليز في تاريخهم

تصرف نابليون

اذا قلنا ان نابليون من أعاظم القواد في الدنيا ، في كل العصور ، أظهر السامعون استخفافاً بهذا القول . لا لانه غير صحيح بل لانه تحصيل حاصل . اذ ليس من يجهل قدر نابليون ، حتى ولا الجهلاء . فيهمنا أن ندرس حركاته في مواقف يأسه . وأرجو القارىء ان ينتبه الى ما في هذه الاسطر من مجالي نفسية الامبراطور نابليون . كان مركزه على قمة « لايل اليانس » وراء قلب صفوفه . وكان أمامه خوان (طاولة) عليه الخرائط والرسوم الحربية

وبيده مرقب (تلسكوب) يرقب به حركات الجنود ، وسير القتال .
والى يساره الجنرال « سولت » يتلقى أوامره فيرسلها سراعاً الى


نابليون

محل الايجاب ، بأيدي كبار الضباط ، الواقفين وراءه على الاقدام ، استعداداً للعمل .
ووراء الامبراطور أركان حربه على خيولهم ، في أتم استعداد للموت أو للحياة .
أقام الامبراطور على ذلك كل النهار ، لا طعام ولا شراب . رابط الجأش ، تام السكينة والهدوء ، منخفض الصوت ، مترصناً ، شأن كبار القواد . كالطود الراسخ لا يزعزعه عصف الرياح

ولما فشل هجوم ناي ، الاخير ، واتصلت ميسرة ولنجتن بميمنته ، وحمي وطيس القتال ، فهم قائد الدنيا ، انه وارد مورد الهلاك . فنهض عن كرسيه ، وامتطى صهوة جواده ، ورام الانسحاب ، فتعذر عليه ، لأن العدو على الاعتاب . فلم تبق لديه وسيلة الا المناداة بحرسه الخاص

فرتب اولئك الفدائيين الاعزاء في صفين ، وسلم قيادتهم للمارشال ناي الخبير ، ورافقهم الامبراطور ، على حصانه ، مسافة وهو صامت . ولما وصل النقطة التي يفارقهم عندها الفراق الابدي ، رفع يده ، ومد سبابته نحو الانجليز ، دون كلام ما . ففهم حرسه انه

مني : هذا هو طريق نجاتكم الوحيد : وهو طريق النجاة من العار بتضحية الحياة . فصاح الحرس بصوت واحد « ڤيڤ لامبرابر » ليحي الامبراطور . وانحدروا الى وادي ظل الموت . ووجهتهم عين قلب الجبهة الانجليزية . وفي نفس الوقت جهز القائد « دانزلوت » الذي كان قد حل لاهاي سنت ، هجوماً آخر على ميسرة قلب الانجليز . فكان قلب الانجليز مهاجماً من الجانبين ، بالحرس وبدانزلوت . فغنم الفرنسيون مدافع انجليزية ، وجهوها الى الانجليز فضاقت الجنود الانجليزية ذرعاً . وعجز برنس اورانج عن انجادها . وارتدت بعض فصائل كان ولنجتن قد أرسلها نجدة . فاضطر الدوك أن يتقدم بنفسه لقيادتها

هنا بلغت المعركة اوج عظمتها واشتدادها
نابليون أمام عدد يفوقه عدداً مرتين
والى الآن لم يلتو ضلعه

نقطة التحول

ولما تمكن ولنجتن من صد هجمات دانزلوت الهملقارية ، أسرع لانقاذ ميمنته من الحرس الامبراطوري الشديد البأس ، وهو في منتهى درجات الاستبسال . هنا بلغت همة ولنجتن أشد جهودها ، وأهم أدوارها . فاصيب تحته حصانان ، فترجل ، وسار في مقدمة الحرس ، شاهراً سيفه . ووصل الربوة التي عليها جنود « ميتلاند » فجرى لهم ما يأتي :

وصل المارشال ناي الى قمة الربوة ، فلم ير أحداً من الجنود الانجليزية . فتحير لحظة . ثم رأى بعض الحرس الانجليزي عن بعد

فتقدم نحوهم . على أنه لم يتقدم ثلاثين يردة . حتى انحنى رجل الى الارض وصاح صيحة رددت اصداءها الحجارة الصماء : هيا بنا يا رجال الحرس هيا : فتحوّل كل حجر في الارض جنوداً وقامت الوف الجنود على الاقدام في وجه الحرس الامبراطوري

فمن كان ذلك الرجل ؟ وما السر في الامر ؟

ذلك الرجل هو دوق ولنجتن نفسه . وقد مدد جنود ميتلاند على الارض . لاتقاء نيران المدافع الفرنسية . التي صبت نيرانها أمام الحرس الهاجم . فلما وصل الحرس الى القمة التي عليها جنود ميتلاند وكفت المدافع الفرنسية عن اطلاق النار . وحان وقت الاشتباك . صاح ولنجتن بالحرس الانجليزي . فنهضوا عن الارض نهضة الرجل الواحد ولا تسل عما جرى بين الحرسين . ذلك آخر سهم في كنانة نابليون ، وكان يرقبهم عن كثب . فرآهم ناكصين تحت نيران الانجليز. وكان لا يزال عنده بعض الفصائل ، فأضافها اليهم ، وأمرهم باعادة الكرة على الانجليز

هنا برز دوق ولنجتن بمظهره الحقيقي ، ذلك المظهر الذي أهله لمنزلة أعظم قائد في تاريخ انجلترا . فلم ينتظر وصول الفرنسيين بل لاقاهم برجاله ، وسار للقاء الاسود القشاعم بالاسود القشاعم . وكان الرصاص يدمدم فوق رأسه عن الجانبين . فلم يعبأ بنفسه . فتوسل اليه أركان حربه أن يربأ بنفسه ان ترد موارد الهلكة . فصاح بهم :

« لا ضرورة لحياتي بعد ، فقد ربحت المعركة »

فحل الاضطراب في الفرنسيين . وكان بلوخر قد شدد الضغط

على جناحهم الايمن ، ولم يبق عندهم خيالة تقف في وجهه فتزحزح الحرس الامبراطوري عن بلانشوا . وصار نابليون مهدداً بقطع خط الرجوع

ختام الاهوال

لقد فهم نابليون ، وفهم ولنجتن ، حقائق هي دون مدارك الاكثرية التي تحت قيادتها . حقائق كبرى ، عسكرية وسياسية . وبدأت نقطة الانحدار ، في حياة نابليون . نخطا آخر الخطى في حياة بسالته ، ومزاياه الحربية ، ومثل نابليون من يحسنها . والمثل قليل على كل حال . فجمع بقية حرسه ونظمهم مربعات ، وسار بهم وهو في وسط أحد تلك المربعات ، يحيط به المارشال سولت والجنرالات برتران ، ودرو ، وكوربينو ، ودي فلاهون ، وجورغود . وصاح نابليون بهم : لقد طاب الموت : فتقدم اليه المارشال سولت ، وقبض على زمام حصانه قائلا : مولاي الامبراطور ، هل حظ الاعداء ناقص فتريد ان تكمله ؟ : وبعد جهد جهيد تمكن الجنرالات من رد نابليون عن عزمه . فعندئذ ألوى عنان جواده ، وبرح الميدان ، لآخر مرة في الحياة ، وهو يقول : خسرنا كل شيء الا الشرف

وظل ولنجتن يطارد الفرنسيين ، في ضوء القمر حتى رأى البروسيين أيضاً يطاردونهم . فعلم عندئذ أن فوزه كان تاماً . فقفل راجعاً . والتقى بيلوخر عند « لابل اليانس » ، مركز نابليون ، فتصافح القائدان ، وتبادلا التهاني لفوزهما بأعظم قوّاد الدنيا ، في أعظم فواصل المعارك ـ الى ذلك الحين ـ وقررا مواصلة الطراد ،

وان يقوم البروسيون بذلك لأن الانجليز أعياهم التعب في ذلك النهار، وقد أعوا قسطهم ، فجرى البروسيون في أثر الفرنسيين كل الليل. وقد مر بك أنهم جاءوا ذلك النهار من ڤوار الى وترلو والطرقات موحلة ثقيلة ، وحاربوا منذ وصولهم ، واستأنفوا السرى وراء الفرنسيين . وكانوا قد انسحبوا في اليوم السابق من ليني الى ڤوار. فلم يكن الثمن الذي دفعه البروسيون عن ذلك الفوز بخساً . وكانت الطريق ملأى بالغنائم . والشاردين . وافلتت قبضة نابليون بعد جهود ربع قرن . قال لامارتين : ان معركة وترلو لم تترك شيئاً غير مفصول

***

كان مشهد الميدان في وترلو ، بعد المعركة ، وقد امتلأ بجثث القتلى ، وتصاعد منه أنين الجرحى ، مما يفتت الاكباد ، وكتب ولنجتن يقول : قلبي حزين ومكسور على رفاق الصبا ، والجنود المساكين ، ولا يفوقني حزناً الا الذين خسروا المعركة »

وعاد نابليون الى باريس في ٢٢ اكتوبر . وتنازل عن العرش . ورأى الوجوه كالحة سوداء ، مما أحل بفرنسا من الخسران . فانسحب من باريس في ٢٩ اكتوبر ، ناوياً السفر الى اميركا . ولكن الحلفاء كانوا يراقبون موانىء البلاد أشد مراقبة . فلم يجد نابليون بداً من تسليم نفسه للحلفاء . فسلم نفسه للانجليز الذين كان أهم أغراضه سحقهم . وبلغ جيوش الحلفاء باريس ، وكان بلوخر البروسي يرمي الى مهاجمتها ، فلم يوافقه ولنجتن في ذلك ، فدخلها الحلفاء ثانية ، ولكن دخولا سلمياً بدون هجوم . وارسل الانجليز نابليون الى سنت هيلانة . وارخي الستار على مسرح نابليون

حوادث تالية

سنة ١٨١٥ : إرجاع لويس الثامن عشر الى عرشه

سنة ١٨١٧ : اعتراف الباب العالي باستقلال السرب الاداري

سنة ١٨٢١ : بدء الثورة اليونانية

سنة ١٨٢٢ : ذبح الترك ٣٠٠٠٠ من أهالي جزيرة خيوس (صاقس)

سنة ١٨٢٣ : انكسار عمر البربوني أمام ميسلونجي في المورا

سنة ١٨٢٤ : مات لويس الثامن عشر ، وخلفه شارل العاشر

سنة ١٨٢٤ : ابراهيم باشا المصري في كريت واليونان سنة ١٨٢٥

سمو الجرية العثمانية

تدفقت عشائر الطورانيين ، من أواسط آسيا ، على الغرب ، في خمس حملات :

الاولى : الهونية بقيادة اتلا . وقد مر ذكرها في الكلام عن معركة شالون

الثانية : المجرية سكان هنجاريا ، وهم أرقى العائلات الطورانية

الثالثة : الاتراك السلجوقيون ، وهم السبب في الحملات الصليبية، بما أحلوه بحجاج بيت المقدس من ضروب الاهانة والتعدي

الرابعة : المنغولية ، بقيادة جنكيزخان ، وهلاكو وتيمورلنك

الخامسة : العثمانية ، وهي أرسخ العائلات الطورانية قدماً ، وأوسعها حكماً ، وأكثرها علاقات باوربا . وفيها الكلام في هذه المقالة

عاش عثمان ، جد العائلة العثمانية ، في الاناضول سنة ١٢٨٨ ـ ١٣٢٦ وهو زعيم عشيرة ، هي جرثومة امارة ، فمملكة ، فامبراطورية عظيمة . وقد حازت من الامجاد ما لم تحزه امبراطورية اسلامية ، بالباسها ملوكها حلة الخلافة النبوية . فصارت زعيمة الاسلام في الدنيا . وامتدت اليها اعناق مئات الملايين في مشارق

الارض ومغاربها . وارتفع الدعاء للخليفـة ـ العثماني ـ من كل المساجد ، في كل الارض ، وقت صلاة الجمعة . وأحاط بالعرش العثماني من الابهة والجلال والمجد ما غدا مثلا . دخلت الدولة العثمانية اوربا ، ورفعت أعلامها فوق ممالك البلقان ، قبل أن تطوى راية الاسلام في الاندلس . فكأنها أحيت امجـاده ، واعلت منـاره . وسقطت قسطنطينية ، عاصمة اليونان ، بيدها . ودخلها محمد الثاني الفاتح ظافراً سنة ١٤٥٣ . ويحسب تلك الحادثة بدء التـاريخ الحديث . ويقال ان سكان القسطنطينية كانوا يوم فتحها مائة الف نفس ، ذبح منها الاتراك ٤٠ الفاً ، وباعوا ٥٠ الفاً عبيداً . فراع ذلك العمل ممالك اوربا ، وزاد ارتياعها لمـا نمت الاساطيل العثمانية ، وهددت ڤينيسيا وجنوا وسيسيليا . واحتلت قبرص ، وطردت الهيكليين منها

الاتحاد المقدس

كان القرن السادس عشر قرن الغرائب في أوربا ، وفي تاريخ المسيحية والتمدن . ومن غرائبه انتشار فن الطباعة ، وكشف العالم الجديد ، والاصلاح الديني ، ومذبحة مار برثلماوس ، وكسر الاسطول الاسباني ، والصدام الهائل بين الكاثوليكية واعدائها . فقد برز لها في الغرب عدو شديد الساعد ، صعب المراس « هو لوثر » ومذهب البروتستانت ، الذي انشأه . فانتزع من كنيسة البابا أفضل ممالـكها في أوربا ، وأرقى مستعمراتها ، في اميركا . وهي أسوج ونروج ودانمارك وهولاندا وانجلترا وبروسيا وسكسونيا وبوهيميا والولايات المتحدة الاميركية . وهددها بانتزاع البقية الباقية . فكانت آلام البابوية وجهودها ، في ميدان الاصلاح مما لا يفوت متصفح التاريخ .

وهاهوذا عدو آخر في الشرق ، هو أيضاً صعب المراس ، وهو الامبراطورية العثمانية ، التي هددت ملكوت البابا بالانقراض

فهبّ البابا وأعوانه لتدارك هذا الخطب ، بكل الوسائل الروحية والمادية . فأمر قداسته بقرع الاجراس والنواقيس ، كل يوم ظهراً ، واجتماع الاتقياء في الكنائس ، والتضرع اليه تعالى أن ينقذ أوربا من الاتراك . وانبث دعاته في ممالك أوربا وأماراتها ، يثيرون النهضة والحماسة ، في قلوب الناس ضد العدو المخيف

وكانت نتيجة هذه المساعي عقد محالفة ثلاثية ، بين فينيسيا وأسبانيا والبابا سنة ١٥٧١

وكانت فينيسيا يومئذ دولة عظيمة ، ذات حول وطول . وكان الاتراك يدعونها « البندقية » وقد احتكوا بها ، بفتحهم دلماسيا واليونان . وكان لفينيسيا قبرص وكورفو وكريت . فراع فينيسيا موقف الاتراك البحري . كما راع أسبانيا التي كانت تملك جنوبي إيطاليا . فرغبت شعوب البلدان الكاثوليكية في تلك المحالفة ، وتطوع الاشراف والامراء من كل أصقاع أوربا ، لاقصاء الطورانيين ، وانقاذ الملكوت

قال أحد المؤرخين : انه لم تكن أسرة من اشراف أوربا ونبلائها لم يكن لها من يمثلها في تلك الحملة

الاساطيل

أرسل فيليب الثاني ، ملك أسبانيا ، اسطولاً فيه ٢٢ بارجة و ٨٠٠٠ جندي وبحار ، بقيادة الاميرال جان اوستريا . وأرسلت جنوا أسطولاً بقيادة الاميرال جيانندريا دوريا ، وسيسيليا ونابلي

أسطولا اميراله المركيز سنت كروز ، والبابا أسطولا أميراله أنطونيو كولونا ، وفينيسيا اكبر أسطول اميراله بروفيدينور بربيجو . ومجموع بوارج هذه الاساطيل ٢٠٠ وعينوا الدون جان أوستريا أميرالا عاماً لها . ومخرت مارة بمضيق إيثاكا وسيثالونيا ، ورأس ماراثيا . والتقت بالاسطول العثماني في ميـاه ليبنتو ، وعدد بوارجه ٢٣٤ ، بقيادة الاميرال علي باشا

ترتيب الاساطيل

ليبنتو بلدة موقعها في الشط الشمالي من بر اليونان المحاذي خليج كورنثوس . فاصطفت البوارج العثمانية صفاً واحداً طويلا ، من الشمال الى الجنوب ، تلامس ميمنتها مرفأ ليبنتو ، وميسرتها في عرض البحر . وقد قسمها الاميرال علي باشا الى جناحين وقلب . فكان هو في القلب ، وسيروكو في الجناح الايمن ، وعلوش باشـا في الجناح الايسر . واصطفت بوارج الحلفاء تجاهها ، وهذا هو ترتيبها : جناحها الايمن تجاه علوش باشا ، بقيادة الاميرال جيانندرا دوريا . والايسر بقيادة بربيجو . والقلب بقيـادة الاميرال العام ، جان أوستريا . وترك اسطولا احتياطياً بقيادة الاميرال سنت كروز

لقد كانت البوارج العثمانية أوفر عدداً ، لـكنها أضعف قوة ، وأقل مدافع . فلما شبت المعركة أحاطت بوارج سيروكو العثماني بالجناح الايسر ، بقيادة بربيجو . ولكن لم ينشأ عن ذلك أمر ذو شأن . ولم يفد الاتراك تغلغلهم بين بوارج الحلفاء . وانجلت المعركة عن تحطيم قسم عظيم من الاسطول العثماني . وكانت خسارة الاتراك ٢٠٠٠٠ جندي ، وخسارة الحلفاء ٨٠٠٠

لم تكن هذه المعركة بالقاضية على البحرية العثمانية ، ولكنها جرحتها جرحاً عميقاً ، بلغ منها العظم وخدشه . وقد ذكرتها توطئة للمعركة القاضية وهي معركة « نافارينو » سنة ١٨٢٧

الثورة اليونانية

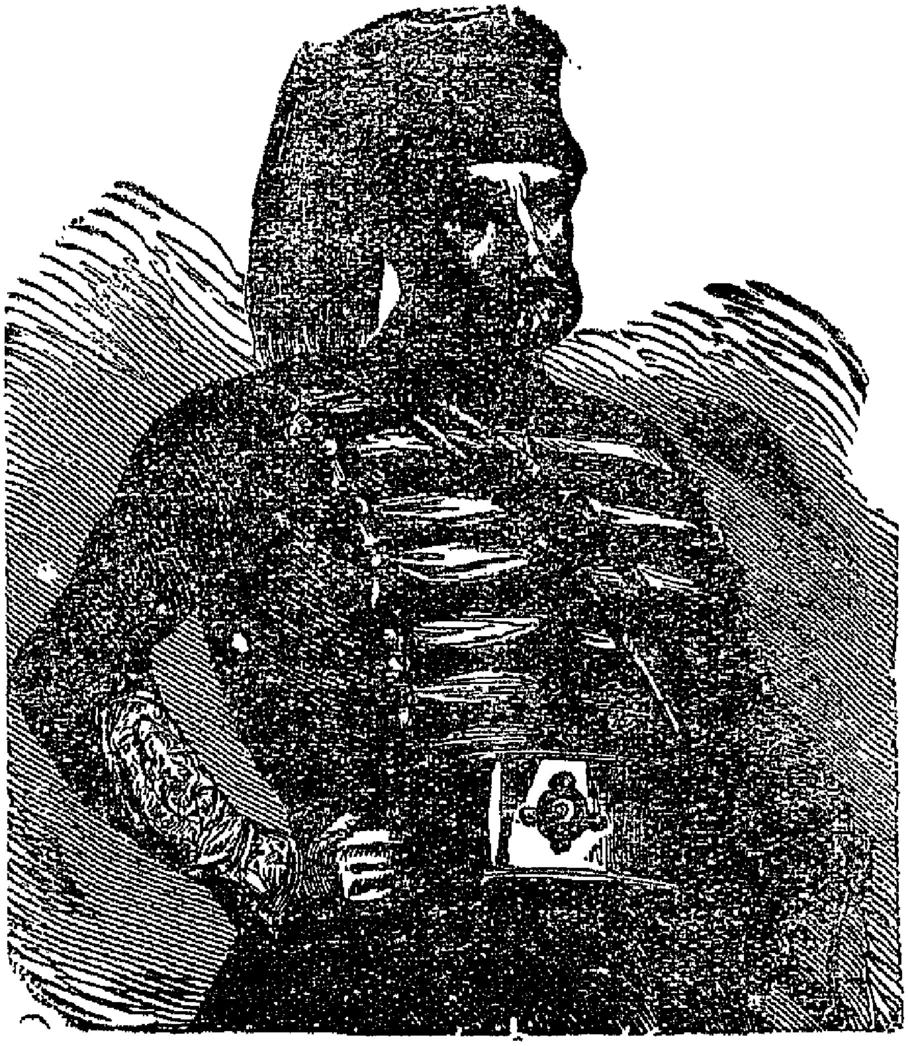
بلغت الدولة العثمانية أبعد امتدادها ، في القرن السابع عشر . وقرعت جيوشها أبواب فينا سنة ١٦٨٣ . وكادت تفتحها ، لولا انجاد ملك بولاندا اياها . وخفقت أعلام الخليفة العثماني على شمالي افريقية ، من العريش الى بوغاز جبل طارق . وفوق غربي آسيا ، من خليج العجم الى جبال قوقاسيا . وفوق جنوب شرقي اوربا ، من دلماسيا الى بحر قزبين . ولكن هذه الامبراطورية العظيمة دبّ في جسمها فساد ، نخر عظمها . ومع أنها ظلت صورة ماتت روحاً . فثار الانكشارية في بدء القرن التاسع عشر ، وذبحوا ضباطهم ، وخلعوا السلطان سليما ، ثم خنقوه ، وكانوا قد نصبوا مكانه ، ابن أخيه ، مصطفى الرابع . فجاء مصطفى باشا البيرقدار وخلع هذا وولى مكانه السلطان محموداً ، والد السلطان عبد المجيد . وفي بيت عبد المجيد انحلت الامبراطورية ، وانتهت الخلافة ، وانقرضت السلالة العثمانية ، بعد ما تعاقب على العرش أربعة اخوة هم : مراد وعبد الحميد ورشاد ، ووحيد الدين ، وهذا آخر السلاطين من بني عثمان

فلما ظهرت أعراض الانحلال ، في جسم الامبراطورية العثمانية ، رفعت الممالك الهاجعة رءوسها ، وهبت للبحث من لحودها . وأولها مملكة السرب ، ثارت سنة ١٨١٢ بزعامة ميلوش دابرنوفتش . تلتها اليونان سنة ١٨٢١ بزعامة ابسلانتي . وكان القيصر الروسي ،

اسكندر الاول ، ضد اليونان ، جرياً على سياسة مترنيخ الشهير ، واحتفاظاً بقسطنطينية لتكون حصة الروس من التركة العثمانية .

ولكن مذابح صاقس ، وفضائح الاتراك ، ومقتل البطريرك غريغوريوس اليوناني ، في قسطنطينية ، صباح عيد الفصح ، أثارت اوربا على الاتراك . فاعترفت انجلترا سنة ١٨٢٣ باستقلال اليونان ، فلم يسع روسيا الا أن تحذو حذوها ، حفظاً لنفوذها في البلقان ، وانضمت اليها فرنسا . فعقدت هذه الدول الثلاث مؤتمراً ، في لندن سنة ١٨٢٦ قررت فيه استقلال اليونان الاداري ، وأرسلت مذكرة بذلك للباب العالي ، بيد انجلترا . فرفضها السلطان محمد باشمزاز ، وانكر على دول اوربا التعرض للسلطنة العثمانية . فارسلت هذه الدول أساطيلها الى الشرق لانفاذ قرارها ، وانقاذ اليونان من المذابح والفضائح ، التي هزت اوربا بأسرها . فوردت أوامر نظارة البحرية الانجليزية ، لاميرال اسطولها في البحر المتوسط ، كاردنجتن وكان يومئذ في مياه أزمير ، أن يتوجه تواً الى نابوليا في اليونان ، ويتلقى الاوامر من سفير انجلترا في القسطنطينية ، وهو يومئذ اللورد سترافورد دي ركليف . فاقلع الاميرال كاردنجتن من أزمير ، ورافقه الاميرال الفرنسي « ريني » باسطوله . ولما علم الاميرال كاردنجتن ان الاسطول المصري جاء من الاسكندرية ، وانضم الى الاسطول العثماني ، في نافارينو ، في جنوب غربي المورا ، جاء هو أيضاً الى مياه نافارينو ، وصحبه اليها الاسطولان الرومي والفرنسي

وكتب الاميرال الى ابراهيم باشا المصري ، أن يتوقف عن ضرب اليونان ، ريثما تنتهي المفاوضات بين السفراء والباب العالي ، فوعدهم ابراهيم باشا ، وعداً شفاهياً ، بانه لن يحرك ساكناً على



ابراهيم باشا

اليونان ، حتى ترد اليه أوامر جديدة من الباب العالي . ولكنهم رأوا أعمدة الدخان ، تصعد الى السماء من مزارع المورا وحقولها ورأوا أن الهلاك يتهددها . فكتب الاميرال كاردنجتن ، لابراهيم باشا ، باسم الحلفاء ، أن يوقف أفعال التدمير في المورا . فورد له جواب

من أركان حرب ابراهيم باشا : ان الباشا غاب منذ يومين ولا يعرفون له مقراً : فالحال دخلت أساطيل الحلفاء مياه نافارينو وحلت بين البوارج التركية والمصرية . ورأى ربان البارجة دورتسموث الانجليزية حراقة عثمانية راسية في مهب ريحه ، فأرسل كتاباً ، بيد الضابط ج . و . ه . فتزروي ، يطلب من ربان الحراقة الانسحاب من هناك . فأطلقت الحراقة قذائفها ، على القارب الانجليزي ، فقتلت حامل الكتاب وبعض البحارة الذين معه فأطلقت دورتسموث مدافعها على الحراقة ، والحال بدأ القتال . وكان عدد البوارج التركية والعثمانية ٨٠ بارجة . وعدد بوارج الحلفاء أقل ، ولكنها أقوى . فلم تشرق شمس ٢٢ اكتوبر سنة ١٨٢٧ إلا والاساطيل العثمانية في خبر كان . وكان ذلك ختام البحرية العثمانية . قال صاحب الانسكلوبيذيا البريطانية « وتحسب معركة نافارينو من معارك الدنيا الفاصلة ، بالنظر الى علاقاتها التاريخية » فقضت على البحرية العثمانية القضاء المبرم ، واتمت العمل الذي بدأته المحالفة المقدسة سنة ١٥٧١ والنتيجة معلومة عند أبناء هذا الزمان . لان من خسر البحر خسر الحياة

حوادث تالية

سنة ١٨٢٧ : دخلت الجنود الفرنسية بر اليونان وأنفذت قرار لندن . فارغم الباب العالي على الاعتراف باستقلال اليونان

سنة ١٨٢٨ : حرب الروس والترك . واستقلال رومانيا

سنة ١٨٣٠ : ثورة فرنسا ، وخلع شارل العاشر ، وتنصيب لويس فيليب

سنة ١٨٣١ : الحملة المصرية على سورية بقيادة ابراهيم باشا المصري
« ١٨٣٤ : امتلاك فرنسا الجزائر ، ثم نفي الامير عبد القادر باشا الى الشام

سنة ١٨٤٠ : اخراج انجلترا وروسيا ابراهيم باشا عنوة من بر الشام ومن كل تركيا

سنة ١٨٤٢ : حرب الافيون ، وفتح خمس موانىء في الصين للتجارة الاجنبية . امتلاك انجلترا هنغ كنغ في الصين

سنة ١٨٤٨ : ثورة فرنسا الثالثة ، وسقوط لويس فيليب وتأليف الجمهورية الفرنساوية الثانية

١٨٥٣ : تحويل نابليون الثالث الجمهورية الى امبراطورية كما فعل عمه قبلا

١٨٥٤ : معاهدة يوكوهاما ، وفتح اليابان موانئها للتجارة الاجنبية . حرب القريم بين روسيا وتركيا . والى جانب هذه انجلترا وفرنسا وإيطاليا

سنة ١٨٥٦ : عهدة فينا ، وبها غلت يد روسيا عن الفتك بتركيا

سنة ١٨٥٧ : الثورة الهندية ، واخماد انجلترا اياها بالسيف

سنة ١٨٦٠ : مذابح سورية ، واستقلال لبنان الاداري

سنة ١٨٦٤ : محاربة بروسيا دانمارك وانتزاعها شلسويج وهولشتين

سنة ١٨٦٦ : محاربة بروسيا اوستريا ، والفوز عليها ، وزعامتها في الاتحاد الجرماني

سنة ١٨٧٠ : الحرب بين بروسيا وفرنسا

الثامنة عشرة

معركة سيدان

سنة ١٨٧٠

شبت الحرب ، بين بروسيا وفرنسا ، في ١٩ يونيو سنة ١٨٧٠ وفي الحال ظهر الفرق بين الجيشين . وطُوِّق جيش بازين في متز ، بعدما خسر معركة جرافيلوت . وانكسر المارشال مكماهون في ٦ أوغسطس . وتراجع الى شالون أمام الجيش البروسي الثالث ، واستعدت باريس للحصار . فاضطرت فرنسا الى تشكيل جيش جديد ، سمته الجيش الثاني عشر . وهو مؤلف من الفيلق الاول بقيادة الجنرال دوكرو ، والفيلق الخامس بقيادة دي فيلي ، والسابع بقيادة دواي . وحل هذا الجيش في الزاس . وكان فردريك أمير بروسيا (هو والد الامبراطور غليوم الثاني ، وقد توفي سنة ١٨٨٨) يطارد مكماهون . وزحف الامبراطور غليوم الاول ، وقائده العام مولتك ، على باريس بمائتي الف و ٧٠٠٠ مدفع بعد أن طوق البروسيون بازين في متز بمائتي الف أيضاً

وجاء الامبراطور نابليون الى شالون ، في ٦ أوغسطس ، وعقد مؤتمراً حربياً ، عين فيه المارشال مكماهون قائداً عاماً لجيش شالون ، والجنرال تروكو حاكماً عسكرياً لمدينة باريس . وعليه أن يستعد

لاصلاء الالمان معركة حامية ، متى وصلوا باريس . فتوجه الجنرال تروكو الى باريس يحمل هذه القرارات ، وعرضها على الوزارة ، فرفضتها لاسباب سياسية. وأمروا مكماهون أن يذهب الى سيدان ، لشد أزر بازين المحصور في متز . وأمرت بليكاو أن يبغت طلائع البروسيين في فردون ، مستنداً الى عضد مكماهون



نابوليون الثالث

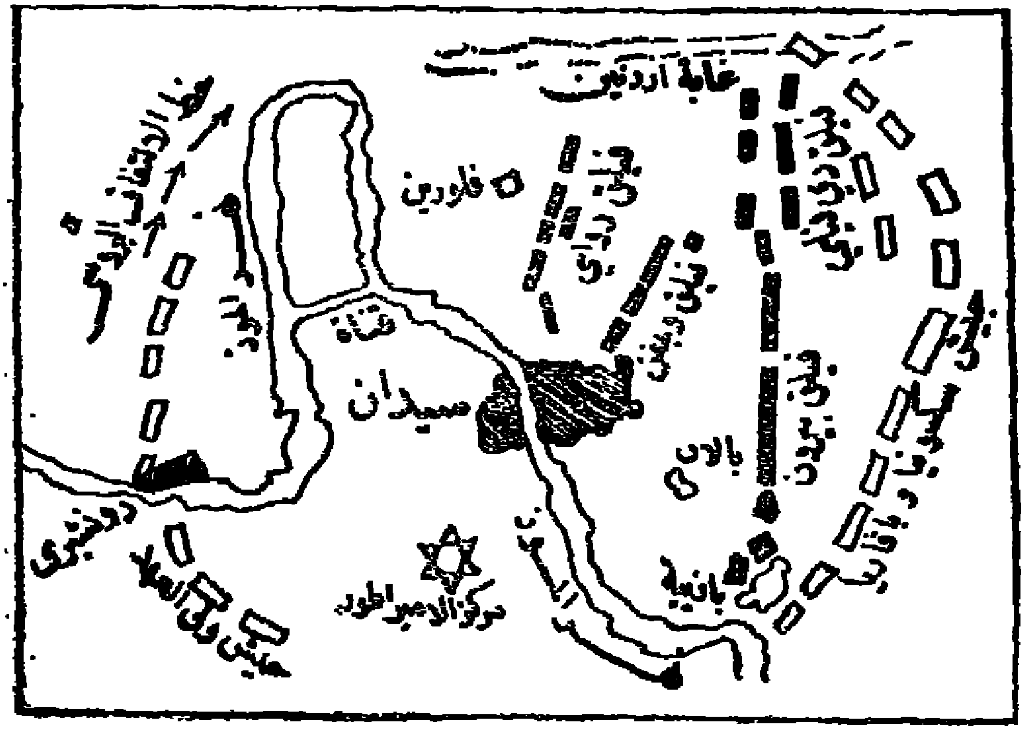
فتوجه مكماهون شمالا قاصداً سيدان ، ومعه ١٣٠ الفاً ، فيها أربعة فيالق، هي الفيالق المذكورة آنفاً ، والفيلق الثاني عشر، بقيادة الجنرال ليبرون . يصحبها فرقتان من الخيالة بقيادة بونمن وموهرجوريت . وكان الفيلقان ١ و ٥ قد خسرا خسارة كبيرة في معركة جرافيلوت . وخسرت الفيالق الثلاثة أيضاً ، في انسحابها من الزاس ، بسبب الجوع والبرد والتعب ولم ينتبه مكماهون الى وجوب تسيير الخيالة الى يمين الجيش، لتكون ترساً له تجاه الالمان ، فسيرها الى يساره ، وبذلك ترك جيشه بدون سياج ، من الجهة الشرقية . وهي أول غلطة ارتكبها مكماهون

ولما هم بقطع نهر الموز ، وجد ان الالمان منتشرون على ضفافه ، فتحول الى حدود بلجيكا ، وعبر النهر في ٣٠ أغسطس . وقرر أن

يريح جنوده هنالك يوماً واحداً . ولكنه لم يرسل كشافة الى غابة اردنيز ، لترى هل هنالك أحد من الاعداء ، كما أفاده الفلاحون في تلك الجهات . وهذه غلطة ثانية . فبغت الاعداء من الغابة ، فيلق دي فيلي ، وصبوا عليه نيران مدافعهم . فاضطر أن ينسحب بخسارة الف قتيل و ٤٢ مدفعاً . ورأى مكماهون في ٣١ اوغسطس انه أمام الاعداء ، فارتد غرباً الى سيدان

سيدان

بلدة على نهر الموز ، فيها وفي ضواحيها ، معامل صناعية ، ويحيط



ميدان سيدان

بها سور قديم ، وفيها قلعة قديمة ضعيفة الاستحكامات ، وهي تحت مرامي مدافع البروسيين ، المنصوبة على الهضاب المجاورة . وقد تقدم جيش بافاريا الاول الى قرية بازيية ، في الجنوب الشرقي من سيدان ،

فوجد الجسر سليماً ، لم يهدمه الفرنسيون بعد عبورهم النهر ، كما تقضي بذلك قواعد الحرب ، فعبره بجيشه ، ولاحق الفرنسيين وهذه غلطة ثالثة لمكماهون

واجتمع مكماهون بالامبراطور نابليون في سيدان ، وعرض عليه خطته ، وهي انه يريح جنوده يوماً واحداً في سيدان ، ثم ينسحب الى بازييه في ٢ سبتمبر . ولكن في مساء ذلك اليوم الساعة التاسعة ليلا ، وردت أوامر مولتك ، قائد بروسيا العام ، الى ولي عهد بروسيا ، أن يعبر النهر ليلا ، لئلا يشعر الفرنسيون بحركته فينسحبوا . ولما أملى مولتك الامر على كاتبه قال له : الآن صار الفار في المصيدة : يعني انه طوّق ـ تقريباً ـ الجيش الفرنسي في سيدان . فعبر ولي العهد النهر ليلاً ، وبذلك صار الالمان حول سيدان من الجنوب والشرق والشمال ، وهم يهمون بإتمام الحلقة لتطويق الفرنسيين تطويقاً تاماً

المعركة

بدأت المعركة صباح أول سبتمبر ، بهجوم البافاريين على قرية بازييه ، حيث كان الفيلق الفرنسي الثاني عشر بقيادة الجنرال ليبرون ثم وردت الاخبار ، ان جموعاً غفيرة من الالمان تعبر النهر عند دونشيري ، الى الغرب . وكان على الجنرال مكماهون ان يسرع بالانسحاب الى الغرب ، ولكنه عقد مؤتمراً حربياً قرر الاحتفاظ بمواقع الجيش ، وذلك ضد جهود دوكر . وهي غلطة مكماهون الرابعة

وقف امبراطور المانيا على هضبة قرب دونشيري ، تطل على مواقع الجيوش . وكان معه الرجال الثلاثة الذين أوجدوا



بسمارك

الامبراطورية ، وهم مولتك وبسمارك ورون ، وعدد من مكاتبي الصحف ، والضباط الاجانب . ورأوا فوق بازييه أعمدة دخان ، فعلموا انها تحت الضرب . وكانت جيوش ولي العهد تتدفق على دونشيري ، فتقطع النهر ، وتنضم الى المقاتلين . وكان البرنس شارل البافاري قادماً بجيوش الموز ، للاحتكاك بجبهة مكماهون الشرقية ، والى يمينه ولي عهد سكسونيا بفرسانه ، ثم الحرس البروسي ، وفيلق تورنجيا

والتحم البافاريون بالفرنسيين في بازييه ، فصدوهم ، ولكنهم أعادوا الكرة ، المرة بعد المرة ، ففازوا بالموقع ، ولكن بخسارة كبيرة . وأعاقهم جنود ليبرون عن التبسط شرقاً . وكانت بطاريات دوكر تعضدها . فنجح الفرنسيون هنالك نجاحاً كبيراً . ولكن اطلاق مدافع الالمان اشتد عليهم كثيراً . فصعد مكماهون الى قمم بازييه ، ليرقب الحالة ، فأصابته شظية ، فوقع جريحاً . فارسل خبراً

الى الجنرال دوكر يوليه القيادة بدله . وكان دوكر معارضاً لمكماهون في خطته ، فلما تولى أمر بالانسحاب غرباً ، آملا أن يسير تحت قنن أردنيز شمالا . وكان على الجنرال ليبرون أن يحمي ساقته ، ضد الباڤاريين . وكان دوكر يؤمل ان يتمكن بهذه الوسيلة من انقاذ ستين الفاً من التطويق ، فيسير بها الى باريس ، فتنضم الى جيش الدفاع عن العاصمة . وكان عليهم أن يسرعوا بالانسحاب قبلما تسد الثغرة أمامهم . لكن حدث ان وافاه كتاب من الجنرال ونكفن ، يعلن انه تعين قائداً عاماً بأمر نظارة الحربية ، ويأمره أن ينجد جناح ليبرون ، فطار صوابه ، أولا لأن ونكفن أخذ القيادة العامة منه ، وثانياً لانه قاد الجيش في سبيل الخطأ . وعبثاً حاول اقناعه بالعدول عن تلك الخطة ، فأبى الاقتناع زاعماً ان الالمان انما كانوا يقصدون انتزاع قرية بازيه من الفرنسيين . ودوكر يرى انهم يرمون الى تطويق الفرنسيين وأسرهم . فاضطر المصيب ، بحكم القانون ، أن يطيع المخطىء لانه رئيسه

فحمى وطيس القتال حول بازيه ، وأستبسل الفرنسيون في استرجاع المواقع التي خسروها . وبلغوا آخر حدود الشجاعة . ولكن مدافع الالمان كانت مرتبة فوقهم صفاً وراء صف ، تمطرهم ناراً حامية . فاضطروا أن ينسحبوا من بازيه وشاتو . وامتلك ولي عهد بروسيا التلال فوق فلورين ، ونصب عليها ٥٠٠ مدفع ،وصب نيرانها على الفرنسيين . فلما رأى الفرنسيون ان الالمان قد كسبوا مؤخرتهم دهشوا برهة . ثم عادوا الى رشدهم ، وثبتوا ، وصدوا هجمات الالمان بكل قوة . فتحرجت الحال ، واتسع نطاق البلاء ،

ولم تبق أمام الفرنسيين ثغرة للانسحاب الا بقعة شمالي ايلي . عندئذ تحققت أقوال دوكر ، الذي كان يرى وجوب الانسحاب . ولكن سبق السيف العذل ، وصار الجيش الآن يخاطر بحياته فداء انسحاب القليلين من رجاله . وأخيراً سدت الثغرة باطباق الالمان عليهم ، بقيادة ولي العهد . فحاول الفرنسيون اختراق الخط ، فدفعوا الهوسار بقوة ، ولكن مدافع الالمان كانت تحصدهم حصداً

وتمكن الالمان من اسكات صفين من مدافع الفرنسيين قرب فلورنغ ، فتقهقر مشاتهم ، اذ لم تبق مدافع تحميهم . ولكن الفرنسيين تمكنوا ، بعد الظهر ، من وضع صف مدافع في طرف الغابة ، وصبت نيرانها على الفيلق الالماني الثالث، فتقهقر عن الاكمة الى الحضيض ، حيث أنجد . ومع ذلك لم يحتمل البقاء تحت نيران المدفعية الفرنسية . تلا ذلك هجوم الجنود الدارعين على البروسيين ، فزحزحوهم . وكان البروسيون يطلقون بنادقهم وهم متقهقرون . ثم ارتدوا فكسروا الفرنسيين . وتكدست اشلاء القتلى من الجانبين . وكان الرصاص ينهال كالامطار ، والكرات تنفجر في كل أقسام الميدان . وخاض الجنود بحار المنايا غير مبالين . اذ كانوا في منتهى الهياج . ودامت الحال على ذلك مدة طويلة . والمعركة تتقلب تارة مع هؤلاء . وطوراً مع اولئك . وكان المتقهقر منهما لا يفتأ يطلق النار على خصمه ، حتى ينجد فيستأنف الهجوم ، الى أن يتقهقر ثانية . وأخيراً تمكن الالمان من نصب مدفعين على ربوة عالية فدمرت نيرانها صفوف الفرنسيين تدميراً

ورأى الامبراطور أهوال القتال ، وان حلقة النار تحيط بهم ، فجمع قواده ، وقال لهم : يجب وقف النيران عن الجيش ، وانهاء تلك المجزرة . وأمر برفع العلم الابيض . فرفعوه ، ولكن لم يتمكن أحد من رؤيته بسبب تكاثف الدخان ، فأرسل العلم بيد الجنرال بيرون الى حيث يراه الالمان . ولكن لما وصل الى الجنرال وتكفن ، في الجبهة ، مزقه قائلا : « لا نسلم » : فسأله الجنرال بيرون كتابة للامبراطور ، فقال انه قد ارسل له كتابة . وسأل وتكفن بيرون مساعدته في الهجوم على بالان ، فطاوعه هـذا . وطلب فدائيين فقدم الفان انفسهم . على انهم لم يتقدموا كثيراً حتى سقطوا جميعاً ، وظل القائدان وحدهما . عند ذلك لانت شكيمة وتكفن ، ورأى انه قد حمّ القضاء ولا مناص . وفيما هما عائدان رأيا الاعلام البيضاء مرفوعة من الجانبين

وجاء الكولونيل بوشارت الالماني ، يطلب التسليم ، فقادوه الى الامبراطور فلما علم ان الامبراطور في سيدان دهش وأية دهشة . وعاد يحمل كتاباً من الامبراطور الى ملك بروسيا وهذا نصه : « بما اني لم أتمكن من الموت مع جنودي ، أضع سيفي على أعتاب جلالتكم » (نابليون)

وأسروا مع الامبراطور ٨٢٠٠٠ جندي و ٥٥٨ مدفعاً . وقتل من الفرنسيين في المعركة ١٧٠٠٠ ، ودخل البلجيك منهم ٧٠٠٠ ، والباقون انسحبوا قبل انقطاع الطريق الى الغرب . وانتهت معركة سيدان ، كما انتهت معركة وترلو . وخابت آمال نابليون الثالث هنا ، كما خابت آمال نابليون الاول هناك . وسقطت الامبراطورية ،

وتشكلت الجمهورية الثالثة التي لا تزال الى الآن . وكانت الحرب بعد معركة سيدان لمقاصد أخرى لم يحلم بها نابليون

وكانت الجيوش الالمانية التي تطوق سيدان ۱۵۰۰۰۰ و ۲۰۰۰۰ فارس . وبعد ذلك دخل الالمانيون باريس وتوجوا غليوم الاول ملك بروسيا امبراطوراً على المانيا في قصر فرساي في ۱۸ يناير سنة ۱۸۷۱

حوادث تالية

سنة ۱۸۷۷ : مذابح البلغاريين ، ومحاربة روسيا الاتراك وبلوغها الاستانة

سنة ۱۸۷۸ : مؤتمر برلين الشهير ، وغل أيدي الروس عن تركيا باجماع أوربا

سنة ۱۸۸۱ : احتلال فرنسا تونس . مقتل القيصر اسكندر الثاني

سنة ۱۸۸۲ : احتلال الانجليز القطر المصري

سنة ۱۸۸٤ : مؤتمر الكونغو لتقسيم قارة افريقية

سنة ۱۸۹٤ و ۱۸۹٥ : مذابح الارمن في ارمينيا وأناضوليا وقسطنطينية ومحاربة الصين واليابان وفوز هذه على تلك

سنة ۱۸۹٦ حرب الترك واليونان ، وفوز الاتراك عليهم . ومع ذلك ، قضت أوربا باستقلال جزيرة كريت ، وولت عليها الامير جورج

سنة ۱۸۹۸ : حرب الولايات المتحدة واسبانيا ، بسبب كوبا ، واحتلال الولايات المتحدة جزر فيلبين . احتلال روسيا بورت ارثر

سنة ١٩٠٠ : ثورة البكسرس الشهيرة في الصين ، والحملة الدولية على باكين
سنة ١٩٠٢ : المعاهدة الانجليزية اليابانيـة بخصوص الشرق الاقصى
سنة ١٩٠٣ : معاهدة روسيا والصين بسبب منشوريا
سنة ١٩٠٤ : نشوب الحرب بين روسيا واليابان

التاسعة عشرة

انكسار روسيا فى الشرق الاقصى

براً وبحراً

أولاً : معركة مكدن

لا أذكر حرباً غير الحرب العظمى ، كانت لها الاهمية التي كانت لحرب الروس واليابان . فانها صدام بين جنسين ، ولها صفة فلسفية كبرى ، وهي آخر امتداد الجنس الابيض ، وبدء تقدم الجنس الاصفر . وفي معركة مكدن تحول سيل الاستعمار ، وأخذ الجنس الاصفر يتملص من حبائل أوربا

دولة القياصرة

رأيناها في عهد بطرس الكبير ، وقبله ، لا تكاد تستحق الذكر بين الدول العظمى . على انها منذ ذلك الحين أخذت تمتد ، وتتسامى حتى بلغت مصاف الدول العظمى في عهد كاترين وبلغت أوج مجدها في القرن التاسع عشر ، ولا سيما بعد حرب القريم . فبلغت حدودها أرمينيا وسجالين ، وملكت سيبيريا وتركستان وقوقاسيا ، عدا الاقسام الاوربية المعروفة . ومدت أغرب خط حديدي في الدنيا يمتد من بطرس برج الى فلاديفوستك على الباسيفيك ، ويمتد منه فرع

الى بورت ارثر ، في جنوبي منشوريا ، ماراً بمكدن حاضرة منشوريا .
فوصلت بحر اليابان ، والبحر الاصفر ، بعروش القياصرة ، وكادت
تستولي على الجنس الاصفر ، وتصبح سيدة ممالك الارض

حكاية بورت ارثر

حاربت اليابان الصين سنة ١٨٩٤ و١٨٩٥ ، فقهرتها براً وبحراً
وعقدت معها عهدة شيمونوزاكي ، وبمقتضاها حلت اليابان بورت أرثر
وشبه جزيرة لياوتنغ ، في جنوبي منشوريا . ولكن روسيا ، بالاتفاق
مع المانيا وفرنسا ، قدمت لليابان مذكرة ، تطلب بها جلاءها عن
لياوتنغ ، لان ذلك يخل بالموازنة في الشرق الاقصى ، ويجحف
بمصالح الصين . فخرجت اليابان ، وفي قلبها تتأجج نيران الحقد على
روسيا وشريكتيها . ولكنها لم تكن متأهبة لخوض ميدان الحرب مع
دولة أوربية كروسيا. ولكن الروس ، الذين طلبوا خروج اليابان من
لياوتنغ ، هم أنفسهم حلوا محلهم ، وأرسلوا أساطيلهم الى بورت ارثر
وسيطروا على منشوريا ، ولامسوا حدود كوريا ، وصاروا على
أبواب اليابان ، وزادوا على كل ذلك ان عقدوا مع الصين معاهدة
بخصوص منشوريا ، صيروها كمستعمرة لهم . وهو أغرب تصرف
سياسي في التاريخ

استعدادات اليابان

فقضت اليابان عشر سنين في الاستعداد للحرب . وعقدت
محالفة مع انجلترا توجب مساعدة احداهما الاخرى . في الشرق
الاقصى . اذا حاربتها اكثر من دولة واحدة . واذا حاربتها دولة
واحدة فقط لزمت حليفتها الحياد . ومعنى ذلك ان اليابان اطمأن

خاطرها الى انها اذا حاربت روسيا لا تعضدها فرنسا والمانيا . وإلا كانت انجلترا مضطرة ان تعضد اليابان . فتظل راجحة على خصيمتها روسيا . ولما أتمت اليابان استعدادها الحربي . براً وبحراً . طلبت من روسيا . ماكانت روسيا قد طلبته منها قبلا ـ الخروج من لياوتنغ ـ فجعلت روسيا تماطل وتحاول قاصدة اتمام عدتها . لتصير قادرة على قهر اليابان . فأسرعت هذه ، وقطعت علاقاتها السياسية مع روسيا ، وضربتها دون اعلان الحرب رسمياً

خلاصة وقائع الحرب

بغت الاسطول الياباني الاسطول الروسي في بورت ارثر . في ليل ٨ ـ ٩ فبراير . فعطل بوارجه . فاختلت الموازنة البحرية في الشرق الاقصى . ورجحت كفة اليابان على كفة روسيا . ثم ضربته في شمولبو . وفي غيرها من موانىء الشرق الاقصى . فحطمته تحطيما وصارت مطلقة اليد في البحار . آمنة في نقل جيوشها الى البر الاسيوي . فأرسلت جيوشها تباعاً وانزلتها على شطوط كوريا ومنشوريا وجعلت تقاتل الروس ، وتدفعهم الى الوراء ، وتحل محلهم وتضرب الاسطول الروسي من وقت الى وقت وتفرق بوارجه ، وتحطمها حتى صار عديم النفع لا تخشى بوادره

وعبرت جيوش اليابان نهر يالو ، الفاصل بين كوريا ومنشوريا ، وتقدمت فقطعت الخط الحديدي عند كنشو ، وحصرت بورت ارثر براً وبحراً مدة تسعة اشهر ثم احتلته ، وأسرت فيه من الروس ٤٠٠٠٠ مع قائدهم ستوسل وذلك في ١ يناير سنة ١٩٠٥ . وقهرت الروس في

لياوتنغ ، فانسحبوا الى مكدن ، حيث كانت المعركة الفاصلة البرية بين الجيشين

الجيوش الروسية واليابانية

كان عدد كل من جيشي الروس واليابان نحو ٣١٠ آلاف . وهو اكبر عدد اشترك في معركة واحدة ، الى ذلك الحين . وكان قائد الروس العام الجنرال كوروباتكين . وقائد اليابان العام المارشال أوياما ، ورئيس اركان حربه الجنرال كوداما . وقد قسم الجيش الياباني الى خمسة جيوش



المارشال اوياما

الجيش الاول : بقيادة الجنرال كوروكي ، وموقعه جنوبي مكدن تماماً

الجيش الثاني بقيادة الجنرال أوكو ، وهو غربي الاول

الجيش الثالث : بقيادة الجنرال نوجي ، وهو الذي كان يحصر بورت ارثر . وموقع هذا غربي الثاني

الجيش الرابع : قائده الجنرال نوزو ، وهو بين كوروكي وأوكو

الجيش الخامس : قائده كوامورا ، وهو شرقي مكدن تحت جبال تالين

أما جيوش الروس فهي ثلاثة :

الجيش الاول : قائده لينيفتش ، وهو الجناح الايسر ، في الشرق

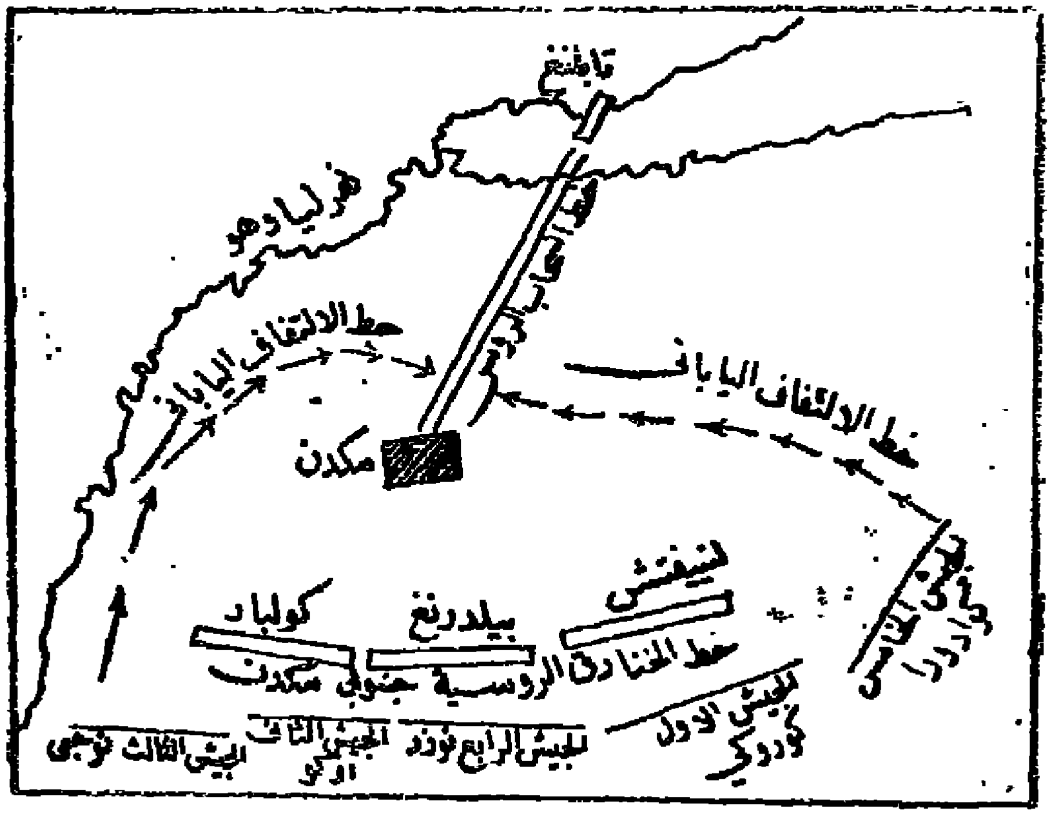
الجيش الثاني : قائده بيلدر لنغ ، وهو في القلب ، في مكدن .

الجيش الثالث : قائده كولبار وهو في الجناح الايمن ، غربي مكدن

وكان في خط الخنادق جنوبي مكدن مائة الف من جنود الروس

المعركة

بدأت المعركة في ٢٥ فبراير سنة ١٩٠٥ ، وظلت نحو ١٥ يوماً بلياليها ، وعيون الف وثمانمائة مليون ، ترقبها في كل أقطار المسكونة،



ميدان موكدن

ليروا ، أتزحزح اليابان روسيا من الشرق الاقصى ؟ . فبدأ القتال جيشا كوروكي وكاواموارا ، وكان الروس يصدونهما . فأمر القائد

الياباني العام - اوياما - أن يتقدم نوجي بالجيش الثالث شمالا ، قصد الالتفاف على جناح الروس الايمن ، وحل اوكو محله . وبعد ما سار جيش نوجي شمالا ٨٠ ميلا ، عطف شرقاً لقطع خط الرجعة على الروس ، واذ خشي كوروباتكين أن يفصل هـذا الجناح عن القلب ، أمره بالرجوع الى مكدن ، وكان قلبه لا يزال ثابتاً أمام كوروكي وكوامورا . ولما اشتد الضغط على جيش نوجي أنجده اوياما بقسم من جيش نوزو ، وذلك في ٦ مارس

وثبت الروس ، واشتد القتال ، وتقدم احتياط الروس ، وصدم جيش نوجي ، وكان قائده في هذه الحركة الجنرال كولبار ، فصده نوجي بخسارة عظيمة . وفي ٧ مارس تراجع الروس نحو مكدن ، بعد حرب عشرة أيام ، لم تبرد نيرانها . فجد اليابانيون في أثرهم ، ولكن ببطء . ووردت نجدات لنوجي ، فوالى تقدمه شمالا ثم شرقاً ، لاتمام حركة التطويق . فارتد القائدان لينيفتش وبيلدرلنغ نحو مكدن ، وبذلك ضاقت الجبهة ، فتوفر عند اليابانيين جيوش كثيرة ، فمد نوجي خطه شمالا ، ثم عطف شرقاً ، ولما شعر اوياما ان الروس عازمون على الانسحاب شدد في قتالهم ، فثبتوا له وقاتلوه قتال الاسود ولا سيما معارك ٨ مارس بين جيشي كولبار ونوجي . ووردت الاوامر لنوجي أن يقطع على الروس خط الرجوع . ولكن الروس شرعوا ينسحبون قبل ذلك ، وكان اليابانيون يضربون ساقتهم ، ويأسرون من يقطعونه منها

وفي ١٠ مارس التقت ميسرة نوجي بميمنة كوامورا ، وبذلك تمت حلقة التطويق ، ولكن لم يكن أحد من الجيوش الروسية

ضمنها ، لانهم كانوا قد انسحبوا · وكان خط عرباتهم يمتد ٢٠ كيلو متراً · وخسر الروس ٢٦٥٠٠ قتيل و ٢٠٠٠٠ جريح ، و ٥٠٠٠٠ أسير ، وبلغ مجموع الخسارة ٩٦٥٠٠ وهي من فواصل المعارك في التاريخ ، لان الجنس الاصفر ، لاول مرة قهر دولة اوربية ، ومن ذلك الحين لم تطمع دولة اوربية في امم الشرق الاقصى

ثانياً : معركة صوشيما البحرية

حالما شبت الحرب ، وذلك في ٩ فبراير سنة ١٩٠٤ ، شرعت الصحف تنشيء المقالات الضافية في قوة روسية البحرية · وقالوا ان مجموع أساطيلها يضمن لها الفوز على اليابان بحراً · ولذلك ظلت عازمة على ارسال الاسطول الى الشرق الاقصى حتى بعد معركة مكدن الفاصلة · وكانت الدولة الروسية قد همت بارساله منذ شبت الحرب بينها وبين اليابان سنة ١٩٠٤ (في ٩ فبراير) · ولكن كانت تعوزه اصلاحات وتحسينات جمة · وفي اكتوبر سنة ١٩٠٤ ارسل القسم الاول ، والاهم ، منه بقيادة الاميرال رودجفنسكي. ولما ودعه القيصر قال له :

« قلبي معك ومع الاسطول العزيز »

وظل على الطريق من روسيا الى اليابان ثمانية أشهر . ووصلها في ٢٧ مايو سنة ١٩٠٥ . وكان قد تبعه قسم ثان بقيادة الاميرال نيبوجانوف . فالتقى بالاسطول الياباني بقيادة الاميرال طوغو في مياه صوشيما ، وهي جزيرة يابانية ، تقع بين جزر اليابان وبر كوريا الاسيوي

بدأ طوغو المعركة ، باطلاق نيران مدافعه على البارجة « اوسليابا » الروسية الساعة الثانية . وبعد أربعين دقيقة تعطلت اوسليابا تعطيلا تاماً ، وهي أفضل البوارج في ذلك الاسطول . فامتد الاسطول الروسي في عرض البحر من الغرب الى الشرق خطا طويلا ، فدارت به بوارج الاسطول الياباني وطراداته . وصبت نيرانها عليه . وفي الساعة الثالثة خرجت البارجة سوفاروف من الخط . وجرح الاميرال رودجفنسكي . فتحولت الزعامة لنيبوجاتوف . فدار باسطوله شمالا . وربما كان يقصد الانسحاب بما يمكن سلامته من بوارجه ، الى مرفأ فلاديفوستك . ولكن الطرادات اليابانية كانت أسرع منه . فدارت به شمالا ، وواصلت صب نيرانها وقذائفها عليه

وبلغت خسارة الروس الساعة ٤٠ ، ٤ دقيقة حداً لا يحتمل وفي الساعة الخامسة اضطربت حركات الروس أعظم اضطراب ، وتحولت غرباً قصد الخروج من حلقة الهلاك التي طوقها طوغو بها . ولكن طوغو جدّ في أثر الروس انى توجهوا ، فحطم واغرق قسما من بوارجهم ، وأسر البقية الباقية ، والتي لم تؤسر ولم تغرق جنحت . والتي نجت من هذا وذاك وبلغت مياه الصين ، نزع سلاحها عملا بقوانين الحياد الدولي . وانتهت المعركة بعد ثلاث ساعات بدمار الاسطول الروسي نهائياً . وكانت روسيا قد قضت ثمانية أشهر في إصلاحه واعداده . وقضى ثمانية أشهر في طريقه الى اليابان . وفي ختام الستة عشر شهراً لقي حتفه في مياه صوشيما . وكان انكسار الروس

بحراً أعظم من انكسارهم براً . وكانت معركة صوشيما فاصلة ليس بين روسيا واليابان فقط . بل أرى اكثر من ذلك كثيراً . أرى أنها كانت فاصلة بين القوقاسيين وبين المنغوليين . وعندها ارتد او تحول سيل الاستعمار . ورفعت الامم الصفراء رأسها . لانها رأت انها تستطيع أن تغلب أمم أوربا البيضاء . وانقضت أطماع الروس في الشرق الاقصى وغرقت في بحر صوشيما أحلام أوربا في استعمار الصين واليابان . ومن ذلك الحين أخذ الفيض الاوربي في التراجع ولا يزال يتراجع أمام الصفر المستيقظين .

واتفق الروس واليابانيون في عهدة بورتسموث باميركا بواسطة روزفلت رئيس الولايات المتحدة الاميركية . على الشروط الآتية :

١ : تخلي روسيا عن لياوتنغ . وحلول اليابان محلها .

٢ : انسحاب روسيا واليابان من منشوريا وردها للصين

٣ : تخلي روسيا عن نصف جزيرة سجالين الجنوبي لليابان

٤ : اطلاق يد اليابان في كوريا .

الحوادث التالية

سنة ١٩٠٥ : الثورة الروسية . وتأليف المجلس النيابي . في بطرسبرج

سنة ١٩٠٦ : مؤتمر الجزيرة الخضراء . بخصوص مراكش . واتفاق كل أوربا فيه على المانيا والنمسا

سنة ١٩٠٧ : اتفاق روسيا وانجلترا على تقسيم بلاد العجم الى ثلاث مناطق

سنة ١٩٠٨ : اعلان الدستور العثماني وتشكيل مجلس المبعوثان

سنة ١٩٠٩ : خلع عبد الحميد السلطان العثماني بعد جلوسه على العرش مدة ٣٣ سنة وسجنه في سلانيك . ضم النمسا بوسنه وهرسك الى امبراطوريتها

سنة ١٩١١ : احتلال إيطاليا طرابلس الغرب وبنغازي وعجز الترك عن إخراجها منها بعد حرب دامت سنة

سنة ١٩١٢ : اتحاد دول البلقان على تركيا . وإخراجها من أملاكها الاوربية . إلا ولاية أدرنة

سنة ١٩١٣ : سقوط بلغاريا أمام أخواتها وحليفاتها

سنة ١٩١٤ : قتل برنسيب الشاب السربي ولي عهد النمسا في سراجيفو عاصمة هرسكوفينا ، وعلى أثر ذلك انفجرت مراجل الحرب العالمية في أوربا

فوز الحلفاء

سنة ١٩١٨

شبت سنة ١٩١٤ أعظم حرب تحت سماء الكرة الارضية . وكان ابتداء ضرامها بين سربيا وأوستريا في ٢٣ يوليه سنة ١٩١٤ . وفي وقت قصير اشتبكت بها دول أوربا . وتجلت صفتها الفاسفية هكذا :

١ً انها تنازع المانيا وانجلترا على السيادة العالمية
٢ً تنازع المانيا وفرنسا على ألزاس ولورين
٣ً تنازع الالمان والسلاف على وراثة الدولة العثمانية التي دخلت في طور الاحتضار

فمحور الحرب اذاً الامبراطورية الالمانية

وشعابها الثلاث هي :

١ً المانيا وانجلترا
٢ً المانيا وفرنسا
٣ً المانيا وروسيا

المانيا وروسيا

بدأت الحرب بين قسمين . ففي القسم الواحد المانيا والنمسا

وفي القسم الثاني انجلترا وروسيا وفرنسا وبلجيكا وصربيا . ثم انضمت تركيا وبلغاريا للجانب الواحد ، ورومانيا وايطاليا للجانب الآخر . وظلت بقية دول أوربا على الحياد . وشهرت اليابان الحرب على المانيا ، ولكنها لم ترسل جيوشاً ولا أساطيل الى أوربا . بل اقتصرت على انتزاع سنغ طاو منها ، في ولاية شنطونغ الصينية ، وانتزاع بعض ارخبيلاتها في الاوقيانوس الباسفيكي

ولما طال أمد الحرب ، انضم الى جانب الحلفاء دول عديدة خارج أوربا ، أهمها الولايات المتحدة الاميركية ، بزعامة رئيسها « ودرو ولسن » وذلك في سنة ١٩١٧

جيوشها

يصعب احصاء الجيوش التي عبأتها الدول المحاربة تماماً فأورد الجدول الآتي ، على سبيل التقريب :

المانيا	:	٨ ٥٠٠ ٠٠٠	
أوستريا	:	٥ ٦٠٠ ٠٠٠	
تركيا	:	١ ٠٠٠ ٠٠٠	
بلغاريا	:	٦٠٠ ٠٠٠	فيكون ١٥ ٧٠٠ ٠٠٠
انجلترا	:	٧ ٥٠٠ ٠٠٠	
روسيا	:	٦ ٠٠٠ ٠٠٠	وهذه خرجت من الحرب قبل نهايتها
أميركا	:	٦ ٠٠٠ ٠٠٠	ولكن لم يأتِ أوربا منها إلا مليونان

فرنسا	:	٤٠٠٠٠٠٠		
ايطاليا	:	٣٠٠٠٠٠٠		
سربيا وبلجيكا تقريباً	:	١٩٠٠٠٠٠	فيكون	٢٧٥٠٠٠٠٠

والفرق بين الجانبين هو ان دول الوسط كانت كتلة واحدة ، اما الحلفاء فكانوا متفرقين متباعدين ولا سيما روسيا وأميركا

وخرجت روسيا من جانب الحلفاء سنة ١٩١٧ ، وصالحت المانيا صلحاً منفرداً سنة ١٩١٨ . ولكن دخول اميركا الحرب الى جانب الحلفاء سد مسدها فلم تتغير النسبة

تقسم ميادين هذه الحرب الى ثلاثة كبرى وثمانية صغرى : وهي :

ميادين الحرب

١ الميدان الغربي ، بين المانيا وبين فرنسا وانجلترا ثم أميركا وهو يمتد من البحر الشمالي الى حدود سويسرا

٢ الميدان الشرقي بين روسيا وبين النمسا والمانيا ، ثم دخلته رومانيا الى جانب الحلفاء . وهو يمتد من بحر البلطيق الى البحر الاسود

٣ الميدان الجنوبي بين ايطاليا والنمسا في الالب

٤ بين سربيا والنمسا . وانضم الى هذه بلغاريا والمانيا

٥ بين تركيا وبين فرنسا وانجلترا في غاليبولي

٦ ميدان مكدونيا : بين بلغاريا وتركيا ، وبين فرنسا وانجلترا

٧ ميدان مصر وسورية ، بين تركيا وانجلترا

٨ ميدان العراق ، بين تركيا وانجلترا
٩ ميدان ارمينيا ، بين روسيا وتركيا بمساعدة المانيا
١٠ جنوب غربي افريقية ، بين المانيا والامبراطورية الانجليزية
١١ شرقي افريقية ، بين انجلترا والمانيا
عدا ميادين سنغ طاو ، والارخبيلات

وكانت الحرب براً وبحراً وهواءً . وقد فاز الحلفاء فوزاً نهائياً تاماً في كل هذه الميادين ، في خلال اربع سنين

هجمات لودندورف الاخيرة

كان قائد المانيا العام في بدء الحرب فون مولتك ، ثم خلفه هندنبرغ ، ثم لودندورف ، وهذا كان قائد المانيا العام سنة ١٩١٨ في المعارك الختامية . وقد بدأ بهجومه الاخير العظيم في مارس سنة ١٩١٨ ، على الجبهة الانجليزية في سان كنتان ، وساق في هذا الهجوم من الجيوش الالمانية السابع عشر والثامن عشر ، قاصداً الاحاطة بالجيشين الانجليزيين الثاني والسابع عشر . فثبت له الانجليز وصدوه فعدل عن الهجوم هنالك ، وهجم هجوماً جديداً في ٣٠ مارس في جبهة اميان فرجح عليهم وردهم اربعين ميلاً وأفقدهم في هذا الهجوم ٢٥٠ الفاً

وهجم على هضاب اراس في ٢٨ مارس . فصد هجومه هذا القائد بنغ الانجليزي قائد الجيش الاول وهجم في ٢٧ مايو على جبهة الفرنسيين في ميدان الاين . فهبط بأربعين فرقة على سبع فرق في جبهة طولها ثلاثون ميلاً . فرجح عليهم طبعاً وساقها أمامه الى ما وراء نهر المازن

وآخر هجمات لودندورف في ١٥ يوليو شرقي رعس . فصد الحلفاء هجومه

قيادة الحلفاء واستعدادهم الاخير

كان لكل جيوش الحلفاء قائد عام على حدة

فكان قائد الجيش الاميركي العام الجنرال جون برشنغ

وقائد الجيش الانجليزي العام الفيلد مارشال هايج

وقائد الجيش الفرنسي العام المارشال بيتان

وقائد الجيش الايطالي العام الجنرال دياز

ففي أثناء هجمات لودندورف الاخيرة المار ذكرها ، أتم الحلفاء ما نقصهم في سني الحرب الاربع ، أعني انهم وحدوا القيادة . وتعين المارشال فوش الفرنسي قائداً عاماً لكل جيوش الحلفاء . وكان يعمل طبعاً بمشورة قواد الحلفاء المذكورين

يوم ٨ أغسطس سنة ١٩١٨

اجتمع القواد الاربعة المذكورون برياسة القائد فوش ، وقرروا القيام بهجمات محلية متنوعة متوالية ، لمشاغلة الالمان وتشتيت فكرتهم ريثما تتكامل معدات القائد العام فوش للهجوم العام الاخير الفاصل . وكان يظن انه سيكون في سنة ١٩١٩

ولكن الجنرال لنصن الانجليزي قائد الجيش الانجليزي الثالث ، في جبهة اميان ، عرض على القائد الانجليزي العام خطة للهجوم على الالمان في اتجاه « ليس » فقدمها القائد هايج للقائد العام فوش ، فصادق هذا عليها ، ووضع الجيش الفرنسي الاول بقيادة الجنرال دبني تحت ارادة القائد الانجليزي العام لمساعدته على انفاذ خطة

لنصن . وقام الجنرال لنصن بهذا الهجوم في ليل ٨ أغسطس . وقد تقدمه في هجومه اربعمائة وخمسون سيارة مدرّعة ــ تانكس

قال لودندورف : « ان يوم ٨ اغسطس كان يوماً أسود على الجيش الالماني ، في تاريخ هذه الحرب ، لانه نقطة الفصل التي لا ريب فيها » . هذا كلام اعظم قواد المانيا . وعلى اثر ذلك عرض القائد الالماني العام المذكور ، على الامبراطور غليوم وعلى المراجع الالمانية العليا ، فكرته كقائد عام بأنه : تلزم المبادرة بمخابرات الصلح حالا لاننا قد خسرنا الحرب

فاذا كان لرأي لودندروف قيمة واعتبار فهذا هو رأيه على ان المارشال فوش غنم الفرصة في ١٠ أغسطس ، وانصن في أوج فوزه في ذلك الهجوم الذي بدأه في ٨ اغسطس ساق على الالمان هجوماً آخر في جهة بيرون وبابوم ، وقام به أيضاً الجيش الثالث نفسه ، وفي ١٧ اغسطس ساق عليهم هجوماً آخر في جنوبي ذلك الميدان ــ بيرون وبابوم ــ وقام بهذا الهجوم الجيش الفرنساوي العاشر . وفي ٢١ أغسطس كرر الجيش الانجليزي الثالث هجومه . وفي ٢٦ منه هجم الجيش الانجليزي الاول

حينئذ أصدر لودندورف أوامره للجيوش الالمانية جمعاء ، بالانسحاب الى خط هندنبرغ ، الذي كانوا قد تجاوزوه في هجماتهم الناجحة منذ شهر مارس

وكان الجيش الامیركي قد تولى الهجوم في اقليم سنت ميهيل ، وحده ، ففاز بتطهير تلك المعاقل والجبال من الالمان ، وأسر منهم عشرات الالوف . فوضح للقائد العام فوش انه يمكنه أن يقوم الآن

بالهجوم النهائي العظيم الآن . فغير فكره وشرع بالهجوم هكذا :

١ ـ ساق الجيش الاميركي غربي نهر موز ، والجيش الفرنسي غربي اراجون في ٢٦ سبتمبر . واتجاههما مزيير

٢ ـ ساق الجيش الانجليزي على خط هندنبرج ، في سان كنتان وكبرالي في ٢٧ منه واتجاهه موبيج

٣ ـ ساق الجيش الانجليزي والجيش البلجيكي في غنت في ٢٨ منه واتجاههما بروسل

فردّ الاميركيون الالمان في اللورين

وهدد الانجليز الالمان بقطع خط الرجوع عليهم في موبيج واخترق المارشال هايج خط هندنبرج الحصين في سان كنتان في ٥ اكتوبر ، وبلغ السهول وراءه

هنالك صار عدد الهاجمين أقل من عدد الدافعين . فوقف الحلفاء ، ريثما يجمعون معداتهم . وفي أثناء ذلك انسحب الالمان ، فنجوا من حركة التطويق . وبذلك برهنت القيادة الالمانية على أهلية كبيرة . ولكنها لم تجهل انها خسرت الحرب ، وان النتيجة وبال عليهم ، واتضح للالمانيين عموماً انهم كانوا مخدوعين ، ورأوا ما خسروا ، وما ماتوا ، وما هو أمامهم ، هنالك ، لاول مرة تزعزعت ثقة الشعب بحكومته ، فثار عليها ، وعلى حزب الحرب . فاستقال لودندورف من قيادة الجيوش ، وتنازل الامبراطور غليوم . وهادن الالمان الحلفاء ، بل سلموا بمطالبهم تسليماً تاماً . وذلك في ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨

وهرب الامبراطور غليوم الى هولاندا . وسلم الالمان اسطولهم

الضخم للانجليز ، وسلموا الوفاً من المدافع والطيارات والغواصات ، مع كميات وافرة من الذخائر . وانتهت الحرب الكبرى . واجتمع نواب الدول في فرساي لعقد الصلح

وكانت فواصل هذه الحرب الكبرى :

١ً ــ في فردون : قام بها الفرنسيون وحدهم

٢ً ــ في خط هندنبرج : قام بها الفرنسيون والانجليز

٣ً ــ في سنت مهييل : قام بها الاميركان وحدهم

وخابت أحلام المانيا والامبراطور غليوم كل الخيبة

وفازت انجلترا على المانيا ، وارخي الستار

ونشأ عن هذه الحرب سقوط أربع اسر في اوربا :

١ً ــ اسرة رومانوف في روسيا

٢ً ــ اسرة هوهنزولرن في المانيا

٣ً اسرة هبسبورج في اوستريا هنغاريا

٤ً ــ الاسرة العثمانية في تركيا

وخطا العالم خطوة كبيرة نحو الديمقراطية